جامعة اليرموك
كليّـــــة الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الإعجاز اللغوي في القرآن بين الجرجاني والزمخشري في كتابيهما "دلائل الإعجاز" و "الكشّاف"

إعـــــداد

صبا يوسف النجّار

إشراف الأستاذ الدكتور

سمير شريف ستيتية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في جامعة اليرموك

- تخصص اللغة والنحو

الفصل الثاني
٢٠٠٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جامعة اليرموك
كليّـــــة الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الإعجاز اللغوي في القرآن بين الجرجاني والزمخشري
في كتابيهما "دلائل الإعجاز" و "الكشّاف"

إعداد
صبا يوسف النجّار

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في جامعة اليرموك - تخصص اللغة والنحو
الفصل الثاني-٢٠٠٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لجنة المناقشـــــــــة :

الأستاذ الدكتور سمير ستيتيـــة، رئيـــــسًا : ....
الأستاذ الدكتور عفيف عبدالرحمن، عضـــــــوًا : ....
الأستاذ الدكتور علي الحمـد، عضـــــــوًا : ....
الدكتور مصطفى طاهر الحيـادرة، عضـــــــوًا : ....

فهرس المحتويات

الفصل الأول : الجرجاني والزمخشري

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث : النظم والدلالة

الفصل الرابع : النظم والبلاغة

الفصل الخامس: تطبيق نظريّة النظم في كشّاف الزمخشري

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإهداء

إلى مرأى نظري ... وسويداء قلبي ...

أمي وأبي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شكر وتقدير

بعد الحمد لله والشكر له أن أعانني على إنجاز هذه الرسالة، لا يسعني في الختام إلاّ أن أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني وتقديري وعرفاني إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور سمير شريف ستيتية الذي أشرف على هذه الرسالة و لم يدخر جهداً في تقديم توجيهاته السديدة وتقويمه الرسالة على الوجه الأحسن فجزاه الله عني كل خير.

وأتوجه بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة المكوّنة من الأستاذ الدكتور علي توفيق الحمد والأستاذ الدكتور عفيف عبدالرحمن والدكتور مصطفى طاهر حيادرة، لتفضلهم بقراءة هذه الرسالة، وتوجيهاتهم السديدة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المُلخّص

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم بين الجرجاني والزمخشري في كتابيهما دلائل الإعجاز والكشّاف

إعداد

صبا يوسف النجّار

إشراف

الأستاذ الدكتور سمير شريف ستيتيه

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تـسهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على أبرز آراء عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري في الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، إذ يُعد الجرجاني بإجماع معظم الباحثين أبرز ناقد عربي قديم تصدّى لموضوع الإعجاز اللغوي، إذ استطاع أن يبني نظريّة متكاملة تعتمد أسسًا علميّة دقيقة للبحث في هذا الإعجاز.

تحاول هذه الدراسة البحث في نظريّة النظم التي قدّمها الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، وبيان ماهيتها وأسسها، وأهدافها، وأثرها الواضح في الدراسات البلاغية والنحوية اللاحقة. وإذا كان الجرجاني قد حاول إقامة نظريّة غايتها فتح الطريق أمام دراسات أكثر تفصيلاً، فإن الزمخشري كان أكثر العلماء اللاحقين اهتمامًا بآراء الجرجاني واتكاءً عليها، تمثّل ذلك في تفسيره الكشاف الذي تبنّى فيه آراء الجرجاني وطبّقها على نحو واسع.

وتحقيقًا لـــهذا الـــهدف جاءت هذه الدراسة بعد المقدمة في خمسة فصول على النحو الآتي :

الفصل الأول : وقد درست حياة الجرجاني ومذهبه الفكري، وأبرز تلاميذه وشيوخه، وما ترك من آثار علميّة، ومن ثم تناولت نظريّة النظم قبل الجرجاني والصورة

التي وصلت فيها إليه، وكيف استفاد من آراء الذين سبقوه ليعيد صياغة النظريّة وفق رؤيته الخاصة، ودرست حياة الزمخشري وكتابه الكشّاف.

أما الفصل الثاني : فقد درست أبرز آراء الجرجاني في العلاقة بين النظم والتركيب، وقد تضمن الفصل محاولة للكشف عن العلاقة بين الكلمة والتركيب، والكلمة والسياق، والعلاقة بين الجملة والسياق تقديمـًا وتأخيرًا وفصلاً ووصلاً وحذفـًا.

وألحقت الفصل الثاني بثالث عنونته بـ "النظم والدلالة" درست فيه ربط الجرجاني النظم بالإعجاز والدلالة بالإعجاز.

أما الفصل الرابع فقد وضّحت فيه العلاقة بين النظم والبلاغة، وأثر آراء الجرجاني في البلاغة العربية، إذ استطاع أن يخرجها من الإطار التقليدي، كما تضمن الفصل أمثلة من دلائل الإعجاز عن جمال الكلمات في التراكيب وفي السياقات المختلفة أو في النص كاملاً.

وفي الفصل الخامس وضّحت كيف تعامل الزمخشري مع نظرية النظم، وكيف استطاع الإفادة منها في كتابه الكشّاف.

وخلصت الدراسة إلى خاتمة، أتبعتها بقائمة للمصادر والمراجع، وفهارس للسور القرآنية والأبيات الشعرية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمة

الحمد لله وحده، أحمده على جزيل نعمائه، وأشكره شكر المعترف بمننه وآلائه، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

تعدُّ قضيّة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم واحدة من أبرز القضايا التي شغلت النقّاد والبلاغيين العرب، فمنذ أن جاء القرآن الكريم شعر العرب الذين كانوا في مستوى رفيع في البيان والفصاحة أنّهم أمام شيء يفوق قدراتهم البشريّة، فجاء القرآن يتحدّاهم بفصاحته وبلاغته، وكان الإعجاز البياني هو مناط التحدّي. ولهذا قال لهم ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1].

لكنّ العرب عجزوا حتى عن الإتيان بسورة واحدة أو حديث مثله، والإعجاز قائم إلى قيام الساعة، قال تعالى : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾[2].

امتّن الله على الإنسان بأن علّمه البيان قال تعالى : ﴿الرحمن علّم القرآن، خلق الإنسان علّمه البيان﴾ [3].

(1) سورة هود، آية ١٣.

(2) سورة الإسراء، آية ٨٨.

(3) سورة الرحمن، آية ١-٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والبيان هنا هو النطق والكلام، وهو من أظهر نعم الله على الإنسان وبه ميّزه عن الحيوان، ونظرًا لأهميّة البيان في حياة الإنسان جاء القرآن الكريم معجزة بيانية، وكان الإعجاز البياني أوضح وجوه الإعجاز القرآني.

وتكمن أهميّة دراسة الإعجاز البياني في أنـــها تفصح عن وقع القرآن الكريم وتأثيره في السامع.

وتـــهدف دراستي لـــهذين العالمين إلى بيان أبرز الملامح المميّزة لمذهب كل منهما في تناولـــهما لموضوع الإعجاز البياني، وبخاصّة نظريّة النظم التي وضع الجرجاني قواعدها، وبيان أسسها ومفهومها وأهدافها، ثم جاء الزمخشري فدرس بلاغة القرآن في كتابه الكشاف على أساسها.

وقد جــاءت هذه الرسالــة في مقدمة وخمســة فصــول على النحــو الآتــي :

* الفصل الأول: درست فيه حياة الجرجاني ومذهبه الفكري، وأبرز تلاميذه وشيوخه، وما ترك من آثار علمية، ومن ثم تناولت نظريّة النظم قبل الجرجاني والصورة التي وصلت فيها إليه، وكيف استطاع أن يستفيد من آراء الذين سبقوه ليعيد صياغة النظريّة وفق رؤيته الخاصة.

ودرست حياة الزمخشري وكتابه الكشــــاف.

* أمــا الفصـــل الثانــي : فقد درسـت فيـــه أبـــرز آراء الجرجانـــي في العلاقـــة بين النظـــم والتركيـــب، وقد تضمــــن الفصـــل محاولـــة للكشـــف عـــن العلاقـــة بين الكلمـــة

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والتركيب، والكلمة والسياق، والعلاقة بين الجملة والسياق تقديمًا وتأخيرًا وفصلاً ووصلاً وحذفًا.

* وألحقت الفصل الثاني بثالث عنونته بـ "النظم والدلالة" درست فيه ربط الجرجاني النظم بالإعجاز والدلالة بالإعجاز.

* أما الفصل الرابع فقد وضّحت فيه العلاقة بين النظم والبلاغة وأثر آراء الجرجاني في البلاغة العربية، إذ استطاع أن يخرجها من الإطار التقليدي، كما تضمن الفصل أمثلة من دلائل الإعجاز عن جمال الكلمات في التراكيب وفي السياقات المختلفة أو في النص كاملاً.

* وفي الفصل الخامس وضّحت كيف تعامل الزمخشري مع نظريّة النظم، وكيف استطاع الإفادة منها في كتابه الكشّاف.

وخلصت الدراسة إلى خاتمة، أتبعتها بقائمة للمصادر والمراجع، وفهارس للسور القرآنية والأبيات الشعرية.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الفصل الأول

الجرجاني والزمخشري

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأوّل : عبد القاهر الجرجاني[ت٤٧١]

أ-اسمـــــــــــــــه :

عبد القاهر بن عبد الرحمن وكنيته : أبو بكر، ونسبه الجرجاني "بـضم الجيم وسـكون الـراء المهملـة، هذه النسبة إلى بلده جرجان(١)، ومن أشهر ألقابه : الإمام النحوي(٢)، وشيخ العربية(٣).

ب-مولده ونشأتـــه :

لم تذكر كتب التراجم السنة التي ولد فيها الجرجاني، لكنّ المترجمين أجمعوا على أنه عاش بجرجان و لم يخرج منها(٤).

وذكر القفطي أنه "فارسي الأصل جرجاني الدار"(٥).

نـشأ الجـرجاني في أسـرة فقيرة، لم تجد فضلة من المال تنفقها على ابنها، كي يستطيع أن يتنقّل في البلاد ليأخذ العلم من أعلامه(٦).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(١) انظـر : القفطـي، جمال الدين علي بن يوسف أبو الحسن (٦٤٦هـ) : إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٢م، ١١٨/١.

(٢) انظـر : الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد الدمشقـي (ت ٧٦٤هـ) : فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٤م، ٣٧٠/١.

(٣) انظـر : الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان – أبو عبدالله (٧٤٨هـ) : سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعمي العرقسوسي وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٤٣٣/١٨.

(٤) الأسـنوي، جمـال الدين عبدالرحيم بن الحسن بن علي (٧٧٢هـ): طبقات الشافعية، تحقيق : كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٥٤/١.

(٥) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة، ص ١٨٨.

(٦) انظر : المصدر السابق، ص ١٨٨.

ج-فكره واعتقاده :

كــان الجرجاني شافعيّــاً وقد ذكر هذا اليافعــي[1] والسبكــي[2]، حيث قال السبكي : "كان شافعياً عالــمــاً أشعريــاً، ذا نسك ودين".

ويجمــع من ترجم له على ورعه وتقواه وزهده في الدنيا وأهلها؛ يقول الذهــبي (ت ٧٤٨هــ) : "كان ورعــاً قانعــاً، دخل عليه لص، فأخذ ما وجد وهو ينظر، وهو في الصلاة ما قطعها"[3].

كان زهده في الدنيا بسبب من ورعه من جهة، وكان كثير الشكاية من معاصريه ويتضح ذلك في شعره حيث يقول[4] :

أيُّ وَقْــتٍ هــذا الــذي نحنُ فــيه   قــد دجــا بالقــياسِ والتــشبيهِ
كُلّمــا ســارت العقــولُ كي تقــ   طــعَ تــيهــاً تــوغّلت في تــيهِ

كــان كارهــاً للأساليب التي يتبعها غيره في التملّق والوصول لذوي السلطة والشأن حيث يقول [5]:

هــذا زمــانٌ لــيسَ فــيهِ   ســوى الــنَذالةِ والجهالــة
لم يــرقَ فــيه صــاعدٌ   إلاّ وسُــلّمُهُ الــنذالة

شهد له المترجمون بالعلم والريَاسه في علم النحو. يقول الذهبي (ت ٧٤٨هــ) : "كان

---

(١) اليافعــي، عفيف الدين عبدالله بن أسعد بن علي أبو السعادات (٧٦٧هــ) : مرآة الجنان وعبر اليقظان فــي معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق : خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٧٨/٣.

(٢) انظــر : الــسبكي، تــاج الدين عبدالوهاب بن علي عبدالكافي أبو نصر (٧٧١هــ): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبدالقادر، أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ١٤٨/٣.

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٤٣٣/١٨.

(٤) الباخــرزي، نور الدين العلي بن الحسن بن أبي الطيّب أبوالحسن (٤٦٧هــ) : دمية القصر وعُصْرة أهل العصر، ط٢، ١٩٠/٢.

(٥) المصدر السابق، ١٣/٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

آيــة في النحو"[1]. ويقــول ابــن تغــري بردي (ت ٨٧٤هــ)[2] :"كان إمامـًا بارعــًا مفتنــًا، انتهت إليه رياسه النحاة في زمانه". وذكــر الــسيوطي (ت ٩١١هــ)[3] أنه كان من كبار أئمة العربية والبيان.

د-شيوخـــــه :

أجمــع مــن ترجم لعبد القاهر الجرجاني أنّ له شيخــًا واحدًا هو أبو الحسين محمد بن الحسن الفارسي (ت٤٢١هــ)، هو ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، حيث أخذ عنه النحو بجرجان[4].

هـ-تلاميـــــذه :

تتلمذ عليه جماعة من العلماء، ذكرت لنا كتب التراجم أشهرهم :

١ - الفصيحي النحــوي[5]، علي بن أبي زيد محمد بن علي، أبو الحسن الاسترباذي (٥١٦هــ)، وسـمّي الفصيحي لكثرة دراسته لكتاب الفصيح لثعلب وقد أخذ عن الجرجاني النحو.

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٤٣٣/١٨.

(٢) ابــن تغــري بردي : جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي أبو المحاسن (٨٧٤هــ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٩٩٢م، ١٠٨/٥.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد أبو بكر (٩١١هــ) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ١٠٦/٢.

(٤) انظــر : ابــن الأنباري، كمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله أبو البركات (٥٧٧هــ) : نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تحقيق : إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط٢، ١٩٧٠، ص٢٦٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٤٣٣/١٨.

(٥) ابن العماد، عبدالحي بن أحمد بن محمد الحنبلي أبو الفلاح (١٠٨٩هــ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ٣٣/٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢- الخطيب التبريزي[١]، يحيى بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الشيباني أبو زكريا (٥٠٢هـ). يقول طاش كبري زاده (ت ٩٦٨هـ) : "كان أحد الأئمة في النحو واللغة والأدب حجة أخذ عن عبد القاهر الجرجاني"[٢].

٣- أحمد بن عبد الله المهابادي الضرير النحوي (٤٧١هـ)[٣].

و-آثـــاره :

صنّف الجرجاني تصانيف جليلة في العربية والنحو والبيان، منها :

١- المغني في شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، نسبه إليه أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) في نزهة الألبّاء، وأضاف[٤]، "وهو نحو من ثلاثين مجلّدًا كما نسبه إليه الذهبي"[٥].

٢- المقتصد في شرح الإيضاح، وهو كتاب مطبوع، حققه كاظم بحر المرجان ونسبه إليه الكتبي (ت ٧٦٤هـ)[٦]، والسيوطي (ت٩١١هـ)[٧].

٣- الإيجاز، وهو مختصر الإيضاح، وذكره حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) في كشف الظنون[٨] : "له مختصر الإيضاح المسمّى بالإيجاز، أوله الحمدُ لله الذي تظاهرت علينا آلاؤه".

٤- العوامل المئة في النحو، وهو كتاب مطبوع، حققه البدراوي زهران.

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٣٣/٤.

(٢) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة، ٢١٦/١.

(٣) الموسوي، محمد باقر : روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تحقيق : أسدالله إسماعيليان، مطبعة مهراستوار، طهران، (د.ط)، ١٩٧٠م، ٩١/٥.

(٤) الأنباري : نزهة الألبّاء، ص ٢٦٥.

(٥) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٤٣٣/١٨.

(٦) انظر : الكتبي : فوات الوفيات، ص ٣٧٠.

(٧) انظر " السيوطي : بغية الوعاة، ١٠٦/٢.

(٨) خليفة، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، طبعة جديدة ومنقحة، ١٩٩٤م، ٢١٤/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥- الجمل، كتاب في النحو مطبوع.

٦- التلخيص، وهو كتاب في شرح كتاب الجمل، ذكره ابن الأنباري[١].

٧- العمدة في التصريف، ومن الذين ذكروه السيوطي[٢].

٨- شرح الفاتحة، ومن الذين ذكروه السبكي[٣].

٩- المفتاح، ومن الذين ذكروه الأنباري[٤].

١٠- إعجاز القرآن الكبير، ومن الذين ذكروه الأنباري[٥].

١١- إعجاز القرآن الصغير، ومن الذين ذكروه السيوطي[٦].

١٢- الرسـالة الشافية[٧]، وقد طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن بتحقيق محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله.

يقـول المحققان في تحليل هذه الرسالة[٨] : تناول عبد القاهر في هذه الرسالة بعض نواحٍ من فكرة الإعجاز أخصّها إثبات الإعجاز عن طريق عجز العرب عن معارضة القرآن.

وظاهر من نظام هذه الرسالة أن عبد القاهر كتبها ليثبت حقيقة الإعجاز لا ليبيّن أسراره.

١٣- أسرار البلاغة، كتاب مطبوع[٩]، بتحقيق محمد رشيد رضا.

---

(١) الأنباري : أبو البركات، نزهة الألبّاء، ص ٢٦٥.

(٢) السيوطي : بغية الوعاة، ١٠٦/٢،حققه: البدراوي زهران

(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، ١٤٩/٣.

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٤٣٣/١٨.

(٥) الأنباري : أبو البركات، نزهة الألبّاء، ص ٢٢٥.

(٦) السيوطي : بغية الوعاة، ١٠٦/٢.

(٧) طبع في دار المعارف في مصر سنة ١٩٦٨م.

(٨) الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد أبو بكر (ت ٤٧١هـ) : الرسالة الشافعية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، مقدّمة التحقيق ١٧.

(٩) طبع في دار المعرفة، لبنان.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٤- دلائل الإعجاز، وهو كتاب مطبوع وقد طبع ثلاث مرّات حققه محمود محمد شاكر وغيره.

يقول طاش كبري زاده (ت٩٦٨هـ)[١] " ومن أراد الوقوف في علم البلاغة على العجب العجاب، والتبحُّر في هذا الباب، فعليه بكتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، كلاهما من مؤلفات الشيخ عبد القاهر الجرجاني. وقيل إنّ كتابيه في هذه الفنون بحران يتشعّب منهما العيون".

ز-وفاته :

توفي الشيخ عبد القاهر الجرجاني في جرجان سنة إحدى وسبعين وأربعمئة[٢]، يقول القفطي[٣] : "ولم يزل مقيماً بجرجان يفيد الراحلين إليه، والوافدين عليه إلى أن توفي في سنه إحدى وسبعين وأربعمئة"، وذكر بعض المترجمين ما قيل من احتمالية أن تكون وفاته في سنة أربع وسبعين وأربعمئةٍ[٤].

المبحث الثاني : نظرية النظم :

النظم في اللغة : هو التأليف، يُقال : نظمه ينظمه نظماً ونظاماً ونظّمه فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته.

والنظم : جمع نظام، والنّظام : ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره وكل شعبة منه [٥]. من هذا المدلول اللغوي، يمكن القول إن النظم هو الترتيب، والتنسيق،

(١) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة، ٢١٤/١.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب، ٣٣/٤.

(٣) القفطي : إنباه الرواة، ٣٣/٢.

(٤) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ٤٣٣/١٨؛ انظر : السيوطي : بغية الوعاة، ١٠٦/٢.

(٥) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري أبو الفضل (٧١١هـ) : لسان العرب (د.ت)، دار صادر، بيروت، ط٣، مادة (نظم).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والانسجام بين الأجزاء المكونة لأي شيء من ناحية المحتوى والظاهر. وفي ما يلي بيان لـمفهوم النظم قبل الجرجاني وبعده:

أ-النظم قبل الجرجاني :

لم يكن عبد القاهر الجرجاني، أوّل من اهتمّ بالنظم، فالاهتمام قديم قدم الأبحاث اللغويّة، فقد اهتمّ به اليونانيون الذين عالجوا قضايا نظم الكلام ضمن ما عالجوه من ألوان الثقافات، وكان أرسطو من أوائل اليونانيين الذين اعتنوا بالدراسات البلاغيّة ويظهر ذلك في كتابه فن الشعر، واهتمّ الهنود كذلك بنظم الكلام ووصل عندهم من الدقّة و الاستقصاء ما لا يقل عن غيرهم(1).

وكان أوّل من اهتم بالنظم من العرب نحاتهم، ويمكن أن يكون سيبويه (ت ١٨٠هـ) الرائد الأوّل لهم، فالباحث في مصادر النحو القديمة يجد أن العرب قد اهتموا بالنظم ودراسته ومعالجته. لكنهّم لم يطلقوا على دراساتهم هذه مصطلح النظم، فكانت دراستهم للنحو قواعد تسير عليها العرب في كلامها(2). وأقدم دراسة في الكتب العربية للنظم وردت عند ابن المقفّع (ت١٤٢هـ)(3)، وبعد ذلك جاء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) متأثّرًا بما ورد عند سابقيه فقال : "إنما الشعر صناعه وضرب من النسج وجنس من التصوير"(4). وتحدّث الجاحظ عن النظم وسمّى أحد كتبه "نظم القرآن".

---

(١) خليل، أحمد : المدخل في دراسة البلاغة العربية، بيروت، (ط١)، ١٩٦٨م، ص ٧٣.

(٢) مطلوب، أحمد :عبدالقاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٣م، ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري، أبو عثمان (٢٥٥هـ) : الحيوان، تحقيق : عبدالسلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي، ج٣، ١٩٦٩م، ص ١٣٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والجـاحظ يـؤمن أنّ القرآن معجز بنظمه وما فيه من بلاغة تأسر القلوب، و لم يوافق أستاذه النظّام (ت٢٣١هـ) على مذهبه القائل بـ (الصُرفه) بل رأى أن القرآن معجـز بذاتـه. يقول الجاحظ : "ولو أنّ رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سـوره قـصيرة لتبيّن في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدّى بـها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها(١).

جعـل الجـاحظ الـنظم أصـنافـاً من القصيد والرجز المزدوج والمتجانس والأسجاع والمنثور ورغم الاختلاف بين عبد القاهر والجاحظ فإنّ عبد القاهر اتـخذ من أعماله دليلاً على صدق نظريته(٢).

كان فهم عبد القاهر لما يريده الجاحظ غير ما فهمه معاصروه. وعاب عليهم أنّهم أغلقوا أفهامهم عمّا يريده الجاحظ، وأنّهم أوّلوا كلامه وفقـاً لأهوائهم، وعندما كان يذكـر الجاحظ اللفظ فهو يريد الصياغة،يقول محمد غنيمي في هذا المجال : "يفهم من كلام الجاحظ في مواضع مختلفة أنه يقصد الصياغة ملاءمة الألفاظ لتصوير المعنى، وأنّ هذا قريب كل القرب مما أراده عبد القاهر في نظرية النظم"(٣).

"لكنّ معاصري عبد القاهر ظنّوا أنّ الجاحظ كان يقول اللفظ ويبدو في ظاهره أنّه يفضله على المعنى، و لم يدركوا فهم عبد القاهر للنظم"(٤).

أما ابن قتيبه (ت ٢٧٦هـ) فقد كان يعد النظم ضم الألفاظ بعضها إلى بعض، وتآلفاً بين المعاني فتسير معـاً في سلاسة وعذوبة كالجداول فيقول : "النظم بمعنى سبك

---

(١) الجرجانـي، عبدالقاهـر : دلائـل الإعجاز، شرحه وعلّق عليه ووضع فهارسه : محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ص ٨.

(٢) الجـندي، درويش : النظم القرآني في كشّاف الزمخشـري، مكتبة نهضة مصر، (د.ط)، ١٩٦٢م، ص ٨.

(٣) هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، القاهرة-مصر، (د.ط)، ٢٠٠١م، ص ٣٩٢.

(٤) المرجع السابق، ص٢٩٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الألفـــاظ وضم بعضها إلى بعض، في تأليف دقيق بينها وبين المعاني، فيجريان معـــًا في سلاســـة وعذوبـــة كالجـــداول، لا تعثر ولا كلفة ولا حوش في اللفظ ولا زيادة أو فضول"[١].

وألـــف ابن قتيبة كتاب "مشكل القرآن" الذي دافع فيه عن القرآن في (الرد على الطاعنين في وجوه القراءات، وفي ادّعاء اللحن، وفي الاختلاف والتشابه).

وأما أبو سليمان أحمد بن محمّد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨هـــ) فقد كان يرى أنّ القـــرآن معجـــز بأنواع ثلاثة [٢]: الألفاظ، والمعاني، والنظوم، أي أن القرآن معجز بمفرد ألفاظه التي يتركب منها الكلام وبمعانيه ونظمه.

يقـــول الخطـــابي: "إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئـــًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمـــًا أحسن تأليفـــًا وأشد تلاؤمـــًا وتشاكلاً من نظمه، وإن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّنًا أحسن وأصح المعاني"[٣].

يتـــضح مما سبق أنّ الخطابي يرى أنّ القرآن معجز؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ مع حـــسن الـــنظم وصحّة المعاني. أي أنه يرى أنّ النظم يكمن في ترابط الألفاظ بعضها بـــبعض، وتآلـــف معانيها للحصول على نظم حسن متكامل، أي أنّ هناك ترابطـــًا وثيقـــًا بين اللفظ والمعنى.

وأمـــا الـــباقلاني (ت ٤٠٦هـــ) فيرى أنّ القرآن معجز بنظمه، غير أنّ تعليلاته تـــباعد بينه وبين فكر عبد القاهر عن النظم. يقول الباقلاني : "لقد كان القرآن معجزًا،

---

(١) زغلول، محمد : أثر القرآن على النقد العربي، ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣) انظر المرجع نفسه، ص ١٠٨، ص ٢٥٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة في كلامهم ومباين لأساليب خطابهم"(١).

جعل الباقلاّني الشعر أسلوباً من النظم، وكذلك السجع(٢). وأما القاضي عبد الجبّار (ت ٤١٥هـ)، فقد وضّح مفهوم النظم بأنه الضم على طريقة مخصوصة لهدف إظهار فصاحة الكلام؛ لأن الكلمات مفردة لا تظهر فيها الفصاحة.

يقول القاضي عبد الجبّار (ت٤١٥هـ): "اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقه مخصوصة، ولابدّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالموقع وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركتها، أو موقعها ولا بُدّ من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزيّة الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها"(٣).

رسم عبد الجبّار بذلك معالم فكرة النظم القرآني، إذ وضّح أنّ النظم هو الضم بطريقة مخصوصة، ولكن هذا الضم مقيّد بشرط، وهو أن تكون للكلمة صفة من صفات ثلاث تظهر ما في الكلام من فصاحة؛ فالكلمة في حال نظمها ينظر إليها من جوانب ثلاثة :

---

(١) الباقلاّني، محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر (ت 406هـ) : إعجاز القرآن، تحقيق : سيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٥، (د.ت)، ص ٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) عبدالجبار المعتزلي، قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني الأسداباذي (ت ٤١٥هـ) : المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق : أمين الخولي، دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٠م، ١٦/١٩٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١- مفهومها في ذاتها :(المواضعة)[1] : فلكل كلمة معناها الخاص بـــها الـــذي يفرقها عن غيرها من مرادفاتـــها؛ ففي اختيار اللفظ المناسب للمعنى، يظهر جمال النظم ومزيّة الفصاحة.

٢- حركات الإعراب : فقد يظهر حسن الكلمة إذا أسندت في موضع معيّن، وقد تفقد هذا الحسن والبهاء إن هي خدمت نفس المعنى، لكنها جاءت مضافة في موضع آخر على سبيل المثال[2].

أي أنّ التـــركيب المعيّن يؤدي إلى معنى معيّن، وتركيب الجملة لا يعطي قيمته الدلاليّة إلا بمراعاة أبواب النحو. وهو لا يريد الحركات الإعرابية فحسب وإنمـــا يـــشير إلى نظـــم الكـــلام يقول عبد الجبار : "إنّ المعاني لا تتزايد وإنـــــما تتزايد الألفاظ"[3].

ينظـــر القاضي عبد الجبّار إلى اللّفظة على أنّها قد تكون في موضع أفصح منها في موضع آخر، فالصفة التي تكتسبها اللفظة صفة مؤقّتة.

٣- موقعها في التقديم والتأخير: "مراعاة الموقع":للموقـــع أهمية في إبراز جمال النظم وحسنه، ولا يمكن للكلمة أن تقدّم بوظيفتها على أكمل وجه حتى يعيّن لـــها موقع محدد.

يظهـــر ممـــا سبق أن القاضي حصر نظريته في النظم على الصياغة من حركات ومواقع إعرابية.

---

(١) القاضي عبدالجبار المعتزلـــي: المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ١٦/١٩٩.

(٢) المصدر السابق، ١٦/١٩٩.

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٧٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب-النظم عند الجرجاني :

استـــتماد عبدالقاهر الجرجاني من جهود النحاة والعلماء في دراسته للنّظم وتحديده بالـــشكل الجديـــد الذي أخرجه لنا محللاً الكلام تحليلاً منطقيـــاً عقليـــاً؛ لأنه شديد الاهـــتمام بالـــنحو. فقد تلقى أفكار عبدالجبار فكانت له خير ملهم في القول بنظريته اللغوية في النظم [1].

نـــستنتج أن الجـــاحظ والقاضـــي عبدالجبار هما أكثر العلماء اقترابـــاً من فكرة عبدالقاهر عن النظم، وإن خالف عبدالجبار الجرجاني في قضيّة اللفظ والمعنى.

لم تكـــن فكـــرة الـــنظم قبل القرن الخامس الهجري واضحة وإنما كانت الآراء تتصارع وتتضارب في بيئات المعتزلة والأشاعرة. وجاء عبدالقاهر فوجد نفسه في هذه البيئة، فأراد أن يحل المشكلة ويعرض فكرة واضحة جليلة[2].

اختلف العلماء في تحديد أثر الألفاظ والمعاني في إعطاء الكلام قيمته الدلالية، وربما كـــان الدافـــع إلى هـــذا الخلاف هو فكرة الإعجاز في القرآن وارتباط الفكر النقدي والبلاغي بمضامينها.

وكان النـــزاع محتدمًا في تحديد موقع الإعجاز أهو في اللفظ وتأليفه أم في المعنى الـــدلالي أو بـــهمـــا معًا ،واستمر هذا الخلاف حتى منتصف القرن الخامس؛ ففريق تعصّب للألفاظ دون المعاني، أمثال أبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـــ)، والفريق الثاني جمـــع بين الألفاظ والمعاني وجعلهما مقياســـاً للبلاغة، ومن هذا الفريق ابن قتيبة (ت ٢٨٦هـــــ)، وفـــريق ثالث جعل الألفاظ والمعاني، شيئًا واحدًا متلازمًا ملازمة الروح للجسد، لا يمكن الفصل بينهما[3].

---

(١) انظر : ضيف، شوقي : البلاغة نظوم وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط٢، (د.ت)، ص ١٦٠-١٦٦.

(٢) انظر : مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص ٥٥.

(٣) انظر : الصغير، محمد حسين علي : نظرية النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجاء الجرجاني فلم يؤيّد المعنى على حساب اللفظ ولا اللفظ على حساب المعنى، ولم يسوِّ بينهما في القيمة وفي التقدير. وقد بيّن أنّ هناك علاقة قائمة بين اللفظ والمعنى لا يمكن إغفالـــها وأطلق عليها مفهوم نظريّة النظم[1].

و قـــال غـــير واحد من العلماء إنّ إعجاز القرآن في نظمه، غير أنّ دلالة النظم عـــندهم تخـــتلف عنها عند عبدالقاهر، و لم يذهب واحد منهم مذهبه في أن النظم هو توخـــي معاني النحو وأحكامه وما بين الكلم من علاقات، وذهب كل منهم مذهبـــًا يقـــول عبدالقاهـــر: "فإنك لن ترى عجبًا أعجب من الذي عليه الناس في أمر النظم، وذلك أنّه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أنّ ها هنا نظمًا أحسن من نظم، ثم تراهم إذا أنت أردت تبصيرهم ذلك تسدر أعينهم وتضل عنهم أفهامهم. وسبب ذلك أن أول شيء عدموا العلم به نفسه"[2].

أدرك عبدالقاهـــر مـــا عجز عنه سابقوه أو معاصروه في مسألة الإعجاز، وفاق اهـــتمامه بالـــنظم اهتمام من سبقوه، فقد أصبح النظم عنده نظريّة متكاملة ابتكرها، طريقها الدراية بأسرار العربية.

أقـــام الجرجاني النظم على المعاني النحوية "فليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[3].

ويذكـــر الجرجاني تعريفات كثيرة للنّظم في غير موضع من كتابه، فيضيف معاني جديـــدة، يوضّح فيها قصده من النظم فيقول: "ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع

(١) انظر : الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"[1].

النظم عند عبدالقاهر إذن هو تأليف الكلام وفقاً لأبواب النحو. وتكمن مزيّة النظم عنده بقوله : "فليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض، التي يوضع لها الكلام، ثم يحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض"[2]. فقد يستحسن تنكير كلمة في تأليف معيّن، فلا يشترط توفّر هذا الاستحسان في كل تأليف.

ولكي يرسّخ مفهوم النظم كرر فكرته التي أقام عليها نظريته قائلاً :"والنظم والترتيب في الكلام، كما بيّنا عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضرب من النقش والوشي"[3].

ويقول : "وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفيّة مزجه لها وترتيبه إيّاهاإلى ما لم يتهد إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم"[4].

---

(١) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٢
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٨٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويكـــرر عبدالقاهر ترسيخ مفهومه لنظرية النظم بكونـــها توخيـــًا لمعاني النحو وأحكامـــه وفروقه ووجوهه في معاني الكلم قدر الإمكان. "لا يفتأ كلما أطال به المدى واسترسل به الحديث أن يذكـّرنا بأمر النظم من جديد، وأن يأخذ في شرحه وإيضاحه كأننا لم يسبق بنا إلف، أو يتقدم لنا عنه شرح إيضاح"(١).

ويرجع الجرجاني صحّة النظم وفساده إلى توخي معاني النحو أو عدمه. "فلا ترى كلامـــــًا قد وصف بصحّة نظمه أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزيّة وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(٢).

ليس الفرق بين الأساليب ليس في الحركات أو ما يطرأ على الكلمات، وإنّما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق.

"هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئًا غير توخي معاني النحو فيما بين معاني الكلم، وأنك ترتب المعاني في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب في غاية القوّة والظهور"(٣). فلا يُعتبر الضم ضمّـًا ولا الموقع موقعــــًا من غير توخي معاني النحو، ويؤكد الجرجاني ذلك بقوله: "وأنك إن عمدت إلى الألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضـــًا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئـــــًا تدعى به مؤلفـــــــــًا"(٤).

---

(١) أبـو سـليمان، صـابر حسن محمد : رونق البيان في إعجاز القرآن، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ص ١١٤.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص٣٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ابتدأ الجرجاني حديثه عن النحو بذكر أقسام الكلام فيقول :"والكلم ثلاث اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينهما ثلاث طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"(١).

ثمّ لخّص أبواب النحو كاملة بذكره هذه التعليقات، وما يندرج تحتها من مفردات نحوية، مستشهدًا بالشواهد القرآنية والأمثلة النحوية.

ويستنتج الجرجاني من تعلّق الكلم أنه لا يكون من جزء واحد، فلا بُدّ من مسند ومسند إليه، ويعقد فصولاً في دلائله يعالج فيها موضوعات النحو بأسلوب تحليلي جديد. وقد نظَم في ذلك أبياتاً فقال (٢):

وقد علِمْنا بأنّ النَّظْمَ ليس سوى ... حكم من النَّحْو نَمْضِي في تَوَخّيهِ
لو نَقّب الأرضَ باغٍ غيرُ ذاكَ لهُ ... معنىً وصَعّد يعْلو في تَرَقِّيهِ
ما عَادَ إلا بخُسْرٍ في تَطلُّبهِ ... ولا رأى غَيْرَ عِيٍّ في تَبغّيهِ
ونَحنُ مَا إنْ بثثْنَا الفِكْرَ ننظُرُ في ... أحكامِهِ ونُرَوِّي في معانِيهِ

يدافع الجرجاني عن النحو ويذم الجُهّال له ويبيّن مزايا النحو. "فالنحو ميزان الكلام ولا يستقيم المعنى عنه ولا تحصل منافعه إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص"(٣).

ج- كتاب (دلائل الإعجاز) :

يندر أن نجد كتاباً متخصصاً مستقلاً يتحدّث عن النظم، فمعظم مصادر اللغة العربية ورد فيها النظم إشارات سريعة، إلى أن جاء عبدالقاهر بكتابه الذي سمّاه "دلائل الإعجاز" فهو مقدمة لفهم الإعجاز، وليس حديثاً في صميم الإعجاز ذاته، إنه شرح لنظرية النظم وصلتها بالإعجاز القرآني، ولم يعتمد الجرجاني في دلائله

---

(١) انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٨.

(٢) المصدر السابق، المدخل ١٩.

(٣) الجرجاني، عبدالقاهر : أسرار البلاغة، تحقيق : خفاجي عبدالمنعم، مكتبة القاهرة، ط١، ١٩٧٦م، ص ٦٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشواهد القرآنيّة كثيرًا لإثبات نظريّة النظم، فالمطّلع على هذا الكتاب يجد أنّ الشواهد القرآنية أقل من الشواهد الشعرية.

قـــدّم الجرجاني لكتابه: بمقدمة : هي "المدخـــل في دلائـــل الإعجـــاز" من إملاء عبدالقاهر.

لقد مهّد لمحتوى كتابه بقوله :"هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكلّ ما يكون به النظم دفعة، وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد"(1).

بـــذلك كانت مقدمتا الجرجاني تمهيدًا للحديث عن إعجاز القرآن، وفيهما شرح عبدالقاهر نظريّة النظم في دلائله وصلتها بالإعجاز القرآني، وهدف إلى معالجة ترتيب الكلمـــات في الجمـــل، وعالج مواضيع النحو معالجة تختلف عن معالجة مؤلفي عصره، واعـــتمد على الذوق والمنطق العقلي في تفسير الكلام، ولا سبيل عنده لمعرفة الإعجاز إلاّ بالنظر إلى النظم.

تعـــرّض كـــتاب دلائل الإعجاز للنقد من بعض المعاصرين مثل ما قاله مصطفى ناصف "الكتاب ممزّق تتفرّق فيه المسألة الواحدة في أماكن متباعدة"(2).

ويـــرد أحمد مطلوب على ذلك بأنّ تكرار عبدالقاهر للمعنى في دلائله دليل على سعة علمه وإدراكه لأمور كثيرة فهو كالبحر(3).

ويقـــول محمـــد عبدالمنعم خفاجي :"وعبدالقاهر عالم لا مؤلف، وحسبك أنّ كتابه الدلائل صورة مشوّهة للتأليف، فهو لا يعرف أن يكتب الفكرة في صفحات مستقلة، وإنما هو

---

(1) الجرجاني : دلائل الإعجاز، المدخل ١٣.

(2) انظر : مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص ٣٥ .

(3) المرجع السابق، ص ٣٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يبدي ويعيد ويأتي من ههنا وههنا، ويكرر التكرير حتى يخرج إلى الهذر، ويذكر جزءًا من الفكر هنا وجزءها الآخر هناك"(١).

ويخالفه أحمد مطلوب بقوله :"ولا نظن انّ الأمر كذلك، فكتاب دلائل الإعجاز كله موضوع واحد أو فكرة واحدة، وقد أجملها عبدالقاهر في مدخل كتابه، وشرع يبرهن عليها في كتابه كله متخذًا لذلك وسائل مختلفة منها عرض النصوص وتحليلها، ومنها الجدل العقلي والمنطق السليم ومنها التأثير النفسي والإحساس الروحاني"(٢).

د-أهميّة نظرية النظم :

تبرز نظريّة النظم بقيمتها العلمية، في الماضي والحاضر وبالاتجاه الذي سار فيه عبدالقاهر، وهو اتجاه لغوي يرفض الفصل بين اللغة والفكر، فكلاهما جزء من جسم واحد بينهما علاقة عضوية ملتحمة؛ لأن اللغة رداء للمعاني، واللفظ يخدم المعنى ويتبعه؛ أي أن الألفاظ لم توضع لتعيين الأشياء المتعيّنة بذواتها، بل إنّ اللفظ يحرّك الصورة الذهنية الكامنة، ولا يمكن أن يثير اللفظ صورة ما لم يكن له في ذهننا صورة تمثله.

واهتمّ عبدالقاهر بالمعاني الثواني، وبيّن دلالتها في النظم وربط بين اللفظ والمعنى، وبيّن دلالات الألفاظ الأسلوبية ودلالتها الثانوية، وجعل النظم مثار القيمة اللغوية.

ومما يبيّن أهميّة العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني كما وضّحها عبدالقاهر، ما توصّل إليه علماء اليوم من أنّ اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات وهذا يدلّ على سبق الجرجاني بفكره وعبقريّته.

---

(١) خفاجي، محمد عبدالمنعم : عبدالقاهر والبلاغة العربية، المطبعة المنيرية، مصر، ط١، ١٩٥٢، ص ٥٢.

(٢) مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص ٣٦.

المبحث الثالث : أسس الوجه التركيبي لنظريّة النظم عند الجرجاني :

يتضمّن الوجه التركيبي لنظرية النظم أربعة أسس واضحة المعالم هي:

١- معاني النحو وأحكامه.

٢- أن النحو يتكوّن من أشكال تحدد المعاني الخاصة بالبنية.

٣- إمكانات التأليف بطرق التعليق أو (مكوّنات الجملة أو العبارة).

٤- اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض.

وفي ما هو آتٍ مناقشة لهذه الأسس :

الأساس الأول : معاني النحو وأحكامه :

لم يقصد الجرجاني "بمعاني النحو" المعنى الذي هو قسيم اللفظ، والذي يذهب إليه أنصار المعنى، وكذلك ليس المقصود به المعاني القاموسية، أو الدلالية. وإنما كان مقصده شيئاً آخر، الأمر الذي جعل تصوره صعباً على معاصريه، فجادلوه فيه جدلاً عنيفاً. لذا جاءت شروحه له مستفيضة وتحليلاته ومناقشاته له معززة بالأمثلة التوضيحية والأدلة العمليّة، يقول في أخذ شروحاته التي استعان فيها بسورة الفاتحة كمثال توضيحي "وجملة الأمر : أن النظم إنما هو أن الحمد من قوله تعالى :﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم﴾[1] مبتدأ ..."، فانظر الآن هل يتصور في شيء من هذه المعاني أن يكون معنى اللفظ؟ وهل يكون كون الحمد مبتدأ معنى لفظ الحمد ؟ أم يكون كون رب صفة وكونه مضافاً إلى العالمين معنى لفظ الرب؟"[2].

---

(١) سورة الفاتحة، آية ١-٢.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٢٨- ٣٢٩.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مـــن الواضح في تعليق الجرجاني هذا أنه لا يقصد المعاني القاموسية، وإنما أراد ما قصده *(Charle's C. Fries)* في ما ترجمه محمود السعران بمعاني البنية الشكلية[1]. وهي تلـــك المعـــاني التي تحمل نماذج من الترتيب، واختيار الأقسام الشكلية في مقابل المعاني القاموسيّة"[2].

ويقـــول في هـــذا : "فالألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض"[3].

ويدافع عن فهمه هذا، ويبيّن أن الفكر يتعلق بما بين معاني الكلمات من العلاقات الـــتي هي معاني النحو، ويدلل على ذلك قائلاً :"ومعلوم أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بـــها؛ فلا تقول : خرج زيد، لتعلمه معنى خـــرج في اللغة، ومعنى زيد، كيف، ومحال أن هذا تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف؟."[4].

إذن لـــيس المقـــصود تلك الدلالة القاموسية للمفردة الواحدة مجردة عن موقعها، وعـــن علاقتها بما سبقها وبما لحقها. إذ يقول : "لا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه سبب من تلك"[5].

أي أن العلاقات بين المفردات أمر لـــه وجاهته في تصوّر الجرجاني، في حين يرى الفكـــر المعـــارض للجرجاني، خلاف ذلك، إذ إن هذا التصوّر في نظرهم يلغي قيمة الألفاظ والمفردات اللغوية، وهذا يخالف الواقع في نظرهم.

---

(١) السعران، محمود : علم اللغة، دار المعارف، مصر، (د.ط)، ١٩٦٢م، ٢٥٠-٢٥١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥١.
(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٩١.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٥.
(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يدافع الجرجاني عن فكرته فيقول: "إنّي لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلاً، ولكنّي أقول : إنه لا يتعلق بها مجرّدة من معاني النحو ومنطوقاً بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها"(١). فيرى أنه "لا محصول للحديث ولا معنى له إلا أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً أو مفعولاً..." (٢).

لم يعرض الجرجاني آراءه المعارضة للفكر السائد آنذاك دونما توضيح وأدلة، وإنما يدلل على ذلك "بأن الفعل لا يُعلم به الخبر في نفسه وجنسه ولكن إذا ضممته إلى اسم عقل منها معاً حكم بمعنى لفعل على مسمّى ذلك الاسم، وإنه واقع منك أيّها المتكلم"(٣).

دفع هذا التصوّر لمعاني النحو الجرجاني لكي يحدد ملامح نظريته لإعجاز القرآن الذي يكمن في هذه المعاني.

ويحتج معارضو الجرجاني بأنّ المتكلم العادي لا علاقة له بالنحو، وهو لا يعرف شيئاً من "معاني النحو" ويرد الجرجاني بقوله :"والجواب هو الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول : جاء زيد راكباً وبين قد جاءني زيد الراكب، لم يضرّه أن يعرف أنه إذا قال : راكباً كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في راكب : حال وإذا قال الراكب أن يعرف أنه : صفة جارية على زيد" (٤). فالقاعدة النحوية ليست هي الهدف، وإنما المعنى الذي تدل عليه القاعدة، من غير أن يهتم بالألفاظ جرسها وسهولة النطق بها.

(١) انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٠٤.

(٢) انظر، المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٣) الجرجاني : أسرار البلاغة، ص ٤١٨.

(٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٠٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وخلاصة رأيه في ذلك أن العبرة ليست في معرفة مصطلحات النحويين ودراساتهم، وإنما العبرة في حسن الاستعمال اللغوي بحيث يجيء التركيب من حيث صحته الداخلية والخارجية، متفقـًا و العرف اللغوي يتفق في عموم النظرة إليه مع ما يراه اللغويون اليوم من أن اللغة بالنسبة لأبنائها عادات وميدان حركة ووسيلة حياة(1).

كما أن للمتكلم استجابة لقواعد لغوية يراعيها في الكلام وإن لم يدركها لا جملة ولا تفصيلاً إذ إن المتكلم -حين ينطق بالجملة ترتد في ذهنه عمليتان أساسيتان(2):

- الأولى تحليلية، يميّز فيها العقل بين عدد معيّن من العناصر التي تنشأ بينها علاقة معيّنة.
- والثانية تركيبية، يركب فيها العقل ويؤلف بين هذه العناصر المختلفة.

وبين هاتين العمليتين تتم جوانب النحو الأربعة وهي(3) :

١- الاختيار. ٢- الانتقاء.

٣- الموقعيّة. ٤- المطابقة.

ولحسن التصرّف في هذه الجوانب الأربعة، تأتي الصورة اللغوية التي تختلف باختلاف مقدرة المنشئ لها التي تأتي نتيجة للعمليتين السابقتين.

إن تركيز الجرجاني على الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات ينسجم و ما يقوله "فندريس" في علم اللغة الحديث : "بأن نماذج اللغة تتم في الدماغ تبعـًا لعوائد لا يشعر بها المتكلم"(4).

---

(1) انظر : حسان، تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩م، ص ٣.

(2) انظر : فندريس : علم اللغة، ترجمة : عبدالحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د.ط)، ١٩٥٠م، ص ١٣٩، ص ١٤٤.

(3) بشر، كمال : علم اللغة العام، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٣٩، ص ١٤٤.

(4) فندريس: علم اللغة، ص ١٠٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويرى تمام حسّان أنّ عبدالقاهر وإن كان قد فطن إلى ضرورة التماسك السياقي فقـد بناه على المعنى المعجمي والدلالي، لا على المعنى الوظيفي أو الشكلي الذي يدور حول وظيفة الباب في السياق[1]. وهذا حكم متسرّع بناه صاحبه دونما تدقيق في رسم النظرية : "معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات".

الأساس الثاني : النحو يتكوّن من أشكال تحدّد المعاني الخاصة بالبنية :

لكـل بنـية حالات توجبها، وقد بنى عبدالقاهر قواعده على أساس معرفة هذه البنـيات ومعانيها الشكلية، ويكفي أن يُعرف شكل البنية حتى يجري حكم عليها دون معرفة مضمونـها أو معناها اللغوي أو المعجمي.

ويـضرب مـن الأمثلة ما يوضح به رأيه، ويتضّح أنّ كلها بنيات وصيغ شكلية تصلح لأن تتضمّن أي معنى ولكن : "لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قدّم فيها وترك تقديمه"[2].

ومـثاله :الاسـتفهام بالهمزة. إذا قلت : أفعلت؟، فبدأت بالفعل كان الشك في الفعـل، وغرض الاستفهام أن تعلم وجوده. وتفسيره : "أنك عندما تضع أي مضمون داخل هذا القالب تجد الشك في الفعل ولكن إذا قلت : أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم. كان الشك في الفاعل من هـو"[3].

وهذا يكفيك أن تعرف شكل البنيات والوضع الذي هي عليه حتى تجري عليها حكماً، ولو لم تعرف مضمونـها اللغوي، أو المعجمي، وإلى هذا يذهب اللغويون المعاصرون على اختلاف مدارسهم. وهذا يكاد يشبه ما ذهـب إليه روبنـز في قولـه :"يرى أغلب اللغويين أن التحليل النحوي ينبغي أن يكون شكليّـاً إذا أريد

---

(١) حسان، تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٢٠٤.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص٩٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أن يكون جزءًا صالحاً من الدراسة اللغوية الوصفية[1]، ويسمي شارلز فرايز هذا بالمعنى الشكلي، فالنحو عنده يتكون من أشكال تحدد المعاني الخاصّة بالبنية،والمقصود تمده بالمعاني التي تحملها نماذج من الترتيب واختيار الأقسام الشكلية[2].

الأساس الثالث : إمكانات التأليف بطرق التعليق :

يرى الجرجاني "أن طرق التعليق لا تعدو ثلاثة، فالكلم ثلاث : اسم، وفعل، وحرف، وللتعليق فيما بينها ثلاث طرق معلومة. تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بـــهما"[3]. فالنحو يتكوّن من وحدات، وفقـــًا لمعاني خاصة بـــها، تدخل في تركيب خاص فيتم بـــها التأليف والتركيب. وهذا قريب مما يراه المحدثون من أن نحو أي لغة من اللغات يدرس طرق تأليف الكلمات في جمل ويوضّح طرائق ترتيبها، مع تحديد المعاني النحوية من حيث المدلول الشكلي للوحدات اللغوية التي يترتب عليها اختلافات في البنية، تتوقف عليها عملية التركيب والتأليف المتنوعة.

ومن أمثلة معاني البنية التي يحددها نحو أي لغة، بيان ما إذا كانت الجملة تقريرًا أو استفهامـــًا أو رجاءً، وهذا ما يسميه الجرجاني : "تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء"[4].

الأساس الرابع : اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض[5] :

يأتي الإعراب نتيجة أو تابعـــًا للترتيب الخاص الذي ينجم عن اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض، وأهم الجوانب التي تراعي في هذا الترتيب : الاختيار، والموقعية،

(١) السعران، محمود : علم اللغة، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٣) انظر، الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٣،ص٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والمطابقة، يسمي الجرجاني ذلك أحكام النحو وقوانينه فيما بين الكلم من علاقات ووفقـاً لـهذه الجوانب يتم التفاضل بين الأساليب ويعلو بعضها فوق بعض.

ويذكر الجرجاني رأيه في الإعراب : "ومن ثمّ فلا تفاضل فيه، فليس لأحد الفضل في أن يعرف أنّ الفاعل مرفوع، والمفعول به منصوب بأكثر من صاحبه، وإنّما يكون الفضل في الوضع الذي أوجب هذا الرفع أو أوجب هذا النّصب[1].

فالإعراب ليس في حقيقته إلا مسألة متواضعة من مسائل اللغة، غير أنه ملك على الناس شعورهم.

وكان هدف الجرجاني أن يوضّح أن الإعراب جانب واحد من جوانب النحو وليس بأهمها، فليس للإعراب في نظر عبدالقاهر مزيّة تدخله فيما يعجز في القرآن الكريم من نظم يتوخى معاني النحو، "وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالرويّة"[2].

ومفهوم الإعراب عنده لا ينتهي إلى مفهوم الموقع من الجملة أو نسبته من الجملة من سابقه أو لاحقه رفعـاً ونصبـاً أو جرّا، وإنّما يتعدّاه إلى المفهوم الدلالي الذي تقتضيه فصاحة المخاطب ونباهة البليغ، ومن ثم تجده لا يقف في نظرته إلى الإعراب عند المظاهر الشكلية التي أُسس لـها الإعراب لاحقـاً في الاهتمام بالقواعد الإعرابية، بل ينظر إليه على أنه علم يقصد به التأسيس لفهم يساعد على إدراك معنى المعنى، ووفقـاً لمنهج الجرجاني هذا تعدُّ الدراسة النحويّة ممهّدة لدراسة المعنى اللغوي. وكانت هذه ثورة في وجه النحاة التقليديين الذين عنوا في البحث بأواخر الكلمات.

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الرابع : الزمخشري وكتابه الكشاف :

أ-الزمخشـــــــــري :[ت٥٣٨]

١-اسمــــــــــــــــه :

هو محمود بن عمر، كنيته : أبو القاسم، نسبه الزمخشري من أشهر ألقابه. جارالله. ولقّب أيضـًا بفخر خوارزم(١)، فيقول:

أنــا الجــارُ جــارُ الله، مكةُ مركزي ومــضربُ أوتــادِي ومعقــدُ أطنابي(٢)

ويقول في مدح نظام الملك راجيـًا عنده الحظوة وطالبـًا المال الجزيل (٣):

فـيا ليــتني أَصْـبَحتُ مُسْتَغْنِيًا ولــم أَكُــنْ فَخْــرَ خُــوارِزْمَ وراسَ الأفاضلِ

٢-مولده ونشأتـــــه :

ولد بزمخشر يوم السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان -رحمه الله- قد فقد إحدى رجليه، فكان يــمشي على جاون خشب(٤). واختلفت الآراء في تفسير سبب فقده لها، فيذكر ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـــ) أنه "أصابه خرّاج في رجله فقطعها، واتخذ رجلاً من خشب، وقيل إن الدامغاني المتكلّم الفقيه سأله عن سبب قطع رجله فقال : دعاء الوالدة، وذلك أني أمسكت عصفورًا وأنا صبّي صغير، وربطت رجله خيطـًا فأفلت من يدي ودخل خرقًا فجذبته فانقطعت رجله، فتألــمت لــه والدتي وقالت : قطع الله رجلك كما قطعت رجله، فلمّا رحلتُ إلى

---

(١) ياقــوت الحمــوي، شهاب الدين ياقوت عبدالله أبو عبدالله (٦٢٦هــ) : معجم الأدباء، دار المستشرق، بيــروت، (د.ت)، ١٢٦/١٩؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر أبو العباس (٦٨١ هـــ) : وفــيات الأعــيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٨م، ٢٥٤/٢.

(٢) الزمخــشري : المحاجاة بالمسائل النحوية، تحقيق : بهيجة باقر الحسني، جامعة بغداد، مطبعة الأسد، (د.ط)، ١٩٧٣م، ص ١٦.

(٣) الزمخشري : المصدر السابق، ص ١٢.

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٥٦/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بخارى في طلب العلم سقطتُ عن الدابة في أثناء الطريق فانكسرت رجلي وأصابني من الألـــم ما أوجب قطعها[1].

قضى طفولته المبكرة في بلدة زمخشر حيث تعلّم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن على أبيه وبعض شيوخ بلدته[2].

٣-تفكيره واعتقـــــــاده :

كان الزمخشري يظهر مذهب الاعتزال، ويصرّح بذلك في تفسيره[3]، حتى إنّ الذهبي عدّه كبير المعتزلة[4].

وكان يجاهر باعتزاليته، فكان إذا دخل على صاحب استأذن في الدخول عليه، فيقول لــمن يأخذ الإذن. قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب[5].

كان طموحـــًا يبحث عن الجاه والمنصب، فسافر وترك بلده من أجل تحقيق غايته، وذاق حلاوة الدنيا في صباه، وعاشر الملوك والسلاطين، ونَعِم بعطاياهم وملذّاتـــهم[6].

في سنة ٥١٢هـــ، أصيب بمرض شديد خاف على نفسه فيه أن يفارق الحياة دون أن يترك له أثرًا، فعاهد الله إن شفاه من مرضه فلن يمدح سلطانـــًا ولن يطأ عتبة أحدٍ من السلاطين، وأن يُكرّس نفسه للتأليف والتدريس[7].

---

(١) الحموي : معجم الأدباء، ص ١٢٧/١٩.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب، ١٢٠/٤.

(٣) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء (٧٧٤هـ) : البداية والنهاية، تحقيق : هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م، ٢٣٥/٣.

(٤) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٥١/٢٠.

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب، ١٢٠/٤.

(٦) القفطي " إنباه الرواة، ٢٦٦/٣.

(٧) المصدر السابق، ٢٦٦/٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثم سافر إلى مكّة رغبةً في زيارة بيت الله الحرام، والهجرة إلى الله حيث يصبح جارًا لله، فيبذل قصارى جهده في طاعة ربّه، وقد عزم على البقاء فيها طوال حياته(١)، يقول (٢):

يَا مَنْ يُسافِرُ في البلاد تعبا ... إنّي إلى البَلَدِ الحَرَامِ مُسَافِرُ
سأُقِيمُ ثَمَّ ثُمَّ تُدفَنُ أعظُمِي ... ولَسوفَ يبْعَثُنِي هُنَاكَ الحاشِرُ

وقد أقام بمكّة عامين، طوّف خلالهما بجزيرة العرب ثم قفل راجعًا إلى بلاده حين شاقه الحنين إلى وطنه ومسقط رأسه(٣).

وفي نهاية حياته وعندما أحسّ بقرب مفارقته للحياة، زهد في الدنيا وملذّاتها وعزف على تأليف الكتب وقراءتها، دون كلال أو ملال حتى فاق أقرانه في الفقه والتفسير والنحو واللغة وغيرها(٤).

عكف الزمخشري عن الزواج وفضل عليه العزوبية؛ وعلل ذلك أن الزوجة تلهيه عن العلم والدراسة(٥).

٤-شيوخه :

من أشهر شيوخ الزمخشري نصر بن البطر. وتلقى الزمخشري العلم عن جماعة من أهل العلم والفضل ومنهم : أبو الحسن علي بن المظفّر النيسابوري (ت ٤٤٢هـ)، وأبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني، كما سمع من شيخ أبي منصور نصر الحارثين ومن أبي سعد الشقاني(٦).

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ١٧٠/٥.

(٢) الزمخشري : المحاجاة بالمسائل النحوية، ص ١٢.

(٣) ابن الأثير، الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ٦٧/١٠.

(٤) السيوطي : بغية الوعاة، ٢٨/٢.

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ١٢٧/١٩.

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٥٣/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥- تلاميـــــــــــــــذه :

قرأ على الزمخشري أبو الحسن علي بن محمّد بن أحمد بن هارون العمراني الخوارزمي الملقّب حجة الأفاضل وفخر المشايخ (ت٥٦٠هـــ)، كما قرأ عليه محمد بن أبي القاسم النحوي (ت٥٦٢هـــ)، كما تلمذ له الموفق بن أحمد بن أبي سعيد أبو المؤيّد المعروف بأخطب خوارزم (ت ٥٦٨هـــ) وغيرهـم[١].

٦-آثـــــــــــــــاره :

ترك الزمخشري تراثـــاً معرفيـــاً ما يزال طلاّب العلم يلجؤون إليه، وسآتي على ذكر بعض مصنفاته :

- أساس البلاغة (جزءان) [٢].
- أطواق الذهب في المواعظ والخطب[٣].
- أعجب العجب في شرح لامية العرب[٤].
- الأنموذج في النحو.
- كتاب الأمكنة والمياه والجبال[٥].
- خصائص العشرة الكرام البروة.
- الدرّ المنتخب من كنايات واستعارات وتشبيهات العرب.
- ربيع الأبرار وفصوص الأخبار[٦].

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ١٥٣/٢.
(٢) الزمخشري : أساس البلاغة، (جزآن)، مكتبة لبنان ناشرو بيروت، ٢٠٠٣م.
(٣) تحقيق : أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م .
(٤) دار الوراقة، (د.م)، ١٩٧٢م.
(٥) تحقيق إبراهيم السامرائي، مطبعة السعدون، بغداد، ١٩٨٦م.
(٦) ربـــيع الأبـــرار وفـــصوص الأخبار، تحقيق ودراسة : عبدالمجيد دياب ورمضان عبدالتواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- الفائق في غريب الحديث(1).
- الأحاجي النحوية(2).
- المستقصى في أمثال العرب(3).
- الكشّاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل(4).

وهذا الأخير هو موضع الدراسة.

٧-وفاتـــــــــــــــــــــــه:

توفي ليلة عرفة عام ٥٣٨هـــ، الموافق لعام ألف ومئة وثلاثة وأربعين بجرمانيق قصبة خوارزم على شاطئ نـــهر جيحون وقيل بجرمانية خوارزم، عن عمر يناهز ستـــًا وسبعين سنة(5).

(الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)

الكشّاف : كتاب ضخم تصدّى فيه الزمخشري لتفسير جميع سور القرآن الكريم، انتهى من تأليفه في ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسمائة(6).

---

(١) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

(٢) تحقيق : مصطفى الحدري، مكتبة الغزالي، حماة (د.ت).

(٣) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م.

(٤) دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب، ١٢١/٤.

(٦) الزمخـــشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـــ) : الكشّاف عن حقائـــق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ج٤/ ٨٢٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمضى الزمخشري في تأليفه سنتين وثلاثة أشهر. وكان وقتها مقيمـاً في مكة مجاورًا الحرم في جناح السليمانية التي على باب أجياد حيث كانت له مدرسة تسمّى مدرسة العلاّمة[1]. ط

١-الغاية من تأليف هذا الكتاب :

ذكر في المقدمة أن مجموعة من أفاضل المعتزلة قد ألحوّا عليه، تأليف كتاب (الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، وأنّهم قد اختاروا له الاسم سلفـاً فوافق بعد تردد إذ إنه كان قد أملى عليهم مسألة في الفواتح وقسمـاً من حقائق سورة البقرة، وكان الكلام مبسوطاً موسّعًا، فأعجب به الناس وطلبوا منه الاستمرار.

وعند مجاورته للحرم باشر في تأليفه، وقد أقبل على التفسير بثقة وعزم، وكان غرضه دينيـاً، ولكنه لم يتابع تفسيره بشكل موسّع ومطوّل، بل لجأ إلى الاختصار والإيجاز، مبيّنـاً مواطن البلاغة والإعجاز في توضيح المعاني[2].

٢-منهج الزمخشري في التفسير :

كان هدف الزمخشري هو الكشف عن حقائق غوامض التنـزيل، وتوضيح عيون الأقاويل، وتأييد مذهب المعتزلة، ولذا نراه يركّز على الجانب البلاغي، فلا يجد فرصة إلا وضّح فيها إعجاز القرآن من حيث دلالة الألفاظ والكلمات والتراكيب[3].

---

(١) الزمخشري : الكشّاف، ج٤/٨٢٥.

(٢) انظر المصدر السابق، المقدمة.

(٣) الذهبي : محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٩٧٦م، ١/٤٤٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكان أشيع ما قيل عن الكشاف أنه تفسير بلاغي للقرآن، فقد كان الزمخشري من أبرز البلاغيين الذين نـهجوا نـهج عبدالقاهر، فجاء الكشاف امتدادًا لمنهجه في دراسة البلاغة دراسة تطبيقية، واتخذ من تفسيره للقرآن مجالاً للتطبيق[1].

ومن أهم خصائص الكشّاف :

أولاً : يخلو الكشّاف من الحشو والإطناب والتطويل.

ثانياً: يعتني بعلمي المعاني والبيان، ويبحث عن الكلمات البلاغية التي توضّح إعجاز القرآن.

ثالثًا: يذكر الزمخشري الوجوه الإعرابية للكلمة، وكان يختار ما يؤيّد وجهة نظره الاعتزالية، ولقد خالف النحاة في بعض آرائه متحيّزًا لمذهبه الاعتزالي.

رابعًا: يلجأ إلى التعليل وسرد الأدلة والبراهين لإقناع السامعين والقارئين بوجهة نظره. يقول الزمخشري :

وناهِيكَ بالكَشّافِ كَنْزاً نضاره   يُعلِّمُ تمييزَ الجيادِ الصَيارِفَا[2]

خامسًا: يبث آراءه الاعتزالية الأمر الذي جعل الكشاف خير مثال لتفاسير المعتزلة.

نبّه العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره، فيقول ابن خلدون (ت١٤٠٦هـ) :"ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشّاف

(١) انظـر: الفيل، توفيق : البلاغة العربية بين القصور والتقصير، دراسة في النشأة والتطور، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مج٣، ع١٤، ١٩٩١م، ص ١٧٥.

(٢) الزمخشري : أساس البلاغة، تحقيق : محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

للزمخشريّ، من أهل خوارزم العراق، إلاّ أنّ مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ... وإذا كان الناظر فيه واقفـًا مع ذلك على مذهب السنيّة محسنـًا للحجاج عنها، فلا جرم إنّه مأمون من عوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان[1].

يقول الزمخشري :

إن التفاسيرَ في الدنيا بلا عَدَد ولَيْسَ فيْها لَعَمْري مِثْلُ كَشَّافي
إنْ كُنْتَ تَبْغي الهُدى فالزَمْ قِرَاءَتَهُ فالجَهْلُ كالدَّاءِ والكَشّافُ كالشّافي[2]

(١) الذهبي : التفسير والمفسرون، ص ٤٣٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٣٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني

النظم والتركيب

المبحث الأول: الكلمة والتركيب.
المبحث الثاني: الكلمة والسياق.
المبحث الثالث: الجملة والسياق.

أ- التقديم والتأخير.
ب- الفصل والوصل.
ج- الحذف.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأول: الكلمة والتركيب :

تعـــدّ قـــضية اللفظ والمعنى واحدة من أبرز القضايا التي شغلت النقّاد والبلاغيين العرب من عهد مبكّر. غير أنّ ما يبدو واضحاً هو أن معظم الآراء النقدية التي عالجت هـــذه القـــضيّة بالدرس والتحليل كانت قاصرة عن تـــمثيل طبيعة العلاقة الجدليّة بين اللفظ والمعنى، فجاءت آراء النقّاد والبلاغيين متضاربة في هذا الشأن؛ إذ أسرف بعضهم في تعظيم اللفظ وجعل المزيّة والفصاحة له وحده، بينما كان بعضهم الآخر من أنصار المعـــنى دون اهتمام حقيقي باللّفظ. وظلّت هذه الآراء تتضارب إلى أن جاء عبدالقاهر الجرجاني الذي وجد نفسه في بيئة مليئة بالخلافات، فردّ على هذه الآراء محاولاً القضاء على ثنائية "اللفظ والمعنى" بقوله : "واعلم أنك كلما نظرت وجدت سبب الفساد واحدًا، وهو ظنّهم الذي ظنّوه في اللفظ وجعلهم الأوصاف التي تجري عليه كلها أوصافـــًا له في نفسه من حيث هو لفظ وتركهم أن يميزوا بين ما كان وصفـــًا له في نفسه وبين ما كانوا قد أكسبوه إياه من أجل أمر عرض في معنـــــــــــــــــاه"(١).

هكـــذا يتضّح أنّ الجرجاني يرى أنّ مرد فساد ذوق أنصار اللفظ هو توهمهم أنّ القـــيمة والمزيّة للفظ دون المعنى، دون أن يدركوا أنّهم عند تـــمييزهم بين الألفاظ لم يكونوا يفاضلون بينها من حيث هي ألفاظ مجرّدة، وإنّما كانوا يعتدّون بالمدلول الذي تـــشير إلـــيه اللفظة، وهذا المدلول الذي تحمله اللفظة تواضع أهل اللغة عليه وفق آلية اعتباطـــيّة، مـــا يعني أنّهم لم يراعوا نظامـــًا خاصـــًا أثناء اختيارهم للرموز الصوتية (الألفاظ) الدالة على الأشياء.

وعلـــى ذلك يرى الجرجاني أنّ أي تغيير في ترتيب حروف لفظة ما لن يؤثّر في دلالـــة هـــذه اللفظة، ولن يؤدي إلى فسادها، لو كان أهل اللغة قد توافقوا على ذلك التغيير. يقول الجرجاني في ذلك :"ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حروف منظومة وكلم منظومة، وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"(١).

قاد هذا الفهم لطبيعة العلاقة بين اللفظة الواحدة والمدلول الجرجاني إلى فهم عميق لطبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى، فأي لفظة في رأي الجرجاني هي مجموعة من الحروف منظومة نظماً لا يعبّر عن الدلالة الحقيقية المستقاة منها بالوضع أو الاصطلاح. ومن هذا المنطلق ينكر عبدالقاهر مبدأ التفاضل بين الألفاظ؛ لأن اللفظ لا يحمل دلالة طبيعية أو ذاتية من تركيب حروفه، وإنما الدلالة التي يحملها هي دلالة وضعية. وما دامت الألفاظ وفق هذه الرؤية مجرّد تعابير صوتية تواضع أهل اللغة عليها للتعبير عن الأشياء فإنّ الحكم على اللفظة بالفصاحة يكون باطلاً. وبناءً على هذا الفهم يتساءل الجرجاني مستنكرًا أن يكون ثمة تفاضل بين الألفاظ من حيث هي ألفاظ مجرّدة فيقول :"هل يتصوّر أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة، حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به حتى يقال إن "رجلاً" أدلّ على معناه من "فرس" على ما سمي به؟ ... وحتى يتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أصين نبأ عنه، وأبين كشفاً عن صورته من الآخر؟ فيكون "الليث" مثلاً أدلّ على السبع المعلوم من "الأسد"(٢).

ويمضي الجرجاني على هذا النحو في معظم فصول الكتاب؛ إذ لا يفتأ يورد الحجج والأدلة على فساد رأي من قال إن الفصاحة والبلاغة في اللّفظ وحده، ولعلّ واحدًا من أهم الأدلة التي يوردها هو أن الحكم للفظ بالحسن أو القبح خارج السياق

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعني أنّ أيّة لفظة ستكون إما فصيحة أبدًا، أو غير فصيحة أبدًا، يتضح ذلك حين يقول : "فلو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظة وإذا استحقت المزيّة والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدًا أو لا تحسن أبدًا"(١).

غير أنّ الأمر في رأي الجرجاني على خلاف ذلك، إذ إن اللفظة الواحدة تتفاوت في فصاحتها، وهذا التفاوت لا ينشأ عن اللفظة ذاتها، بل ينشأ عن السياق الذي يتضمنها، وطريقة تركيبها مع غيرها من الألفاظ "وممّا يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"(٢).

فلو كان الأمر إذن متعلقًا باللفظة وحدها لما اختلفت صفة اللفظة من موضع لآخر، ولتأكيد رأيه هذا يقارن الجرجاني بين لفظة "الشيء" في عدد من الأبيات الشعرية، محاولاً أن يظهر الاختلاف الذي يحصل للفظة الواحدة، باختلاف طريقة توظيفها وتركيبها مع غيرها من الألفاظ، يقول : "ومن أعجب ذلك لفظة الشيء" فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع. وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي :

ومِنْ مَاليء عَيْنَيْهِ مِنْ شيءٍ غَيْرِهُ   إذا رَاحَ نَحْوَ الجَمْرةِ البيضِ كالدُّمَى

وإلى قول أبي حيّة :

إذَا مَا تَقاضَى المرْءُ يومٌ ولَيْلَةٌ   تقاضَاهُ شَيءٌ لا يَمَلُّ التَقَاضِيَا

فإنّك تعرف حسنها ومكانها من القبول. ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لو الفَلَكَ الدَّوّارَ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ   يعوّقه شيءٌ عَنِ الدّوَران

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فإنّك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدّم"(١).

ويرى الجرجاني أنّ آراء أنصار اللفظ قد شكلت سوء فهم لحقيقة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، إذ لو كانت ألفاظ اللغة موصوفة بالحسن أو القبح من غير أن تدخل في نظم، لما كان للغة القرآن أي ميّزة وفضل عن أي استخدام آخر للّغة، إذ إنّ القرآن جاء على لغة العرب مستخدمًا الألفاظ التي يعرفونها ويستخدمونها، وعلى ذلك فإن الحكم للفظة بالحسن أو القبح من غير مراعاةٍ تركيبها مع غيرها من الألفاظ هو أمر باطل، يقول الجرجاني :"فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث حذاقة حروفها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصّت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متبلورة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن، ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ومعنى العالمين والملك واليوم وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن وهذا ما لو كان هاهنا شيء أبعد من المحال وأشنع لكان إيّاه"(٢).

ولعلّ ما يمنح آراء الجرجاني التي حاول بها أن ينفي سمة الفصاحة والبلاغة عن اللفظ، هو أنه لا يكتفي برفض آراء من قالوا بتفضيل اللفظ على المعنى فحسب، و إنما يعمد إلى بيان بطلان آرائهم بالحجة والبرهان، موردًا الأمثلة التي تؤكد رأيه، فنراه في مواضع عديدة يناقش الآيات القرآنية أو أبيات الشعر، مؤكّدًا أثناء تحليله أنّ الفصاحة لا يمكن أن تتحقق في الألفاظ من حيث هي ألفاظ مجرّدة، بل بوساطة

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علاقاتها التركيبية مع غيرها من الألفاظ ضمن السياق الذي يضمّها. يقول الجرجاني مناقشاً هذه الفكرة : "وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى :﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ [1]. فتجلى لك منها الإعجاز، ويبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا، على أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها"[2].

يؤكد الجرجاني رأيه مرة أخرى، فيعمد إلى تحليل ألفاظ الآية موضحاً كيف أن قيمة كل لفظة لم تتحقق فيها وحدها، بل بأسلوب تركيبها مع سواها من ألفاظ الآية فيقول :"إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بيا دون أي نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصّها، ثم إن قيل وغيض الماء "فجاء الفعل على صيغة "فُعل" الدالة على أنه لم يُغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى :﴿وقضي الأمر﴾، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو ﴿استوت على الجودي﴾، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها

---

(١) سورة هود، آية ٤٤.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تعلقـًا بـاللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟"(١).

إنّ هـذا المثال يوضّح طريقة تعامل الجرجاني العلميّة مع الموضوع الذي يناقشه، فهـو يلجـأ إلى دحـض الآراء الـتي يراها باطلة، ثم يقدّم رأيه الذي يعضده بالأدلة والـبراهين، فالآية القرآنية السابقة التي استخرج بعض دلالاتـها بدقة متناهية، تضم مجمـوعة مـن الألفاظ التي لو أخذت مفردة لـما كان بينها أي تمايز، ولما كان لأي منها أية قيمة بلاغيّة، إذ إنها ألفاظ يعرفها النّاس ويستخدمونـها في كلامهم، غير أنّ مـا أكـسبها قيمـتها وفصاحتها هو أسلوب تأليفها، وملاءمة كل منها لما قبلها وما بعدها، بحيث نشأ عنها مجتمعة الآية القرآنية الكريمة وفق نظام دقيق موافق لأسرار اللغة ومـزاياها، فضم الألفاظ إلى بعضها البعض لابُدّ أن يخضع إلى مبدأ التلاؤم الذي يقوم علـى معاني النحو. ولو كان تأليف الكلام وتركيب الألفاظ بعضها إلى بعض يكون دون مـراعاة لأصـول النحو لفسدت اللغة، يقول الجرجاني في ذلك :"وإن أردت أن ترى ذلك عيانـًا فاعمد إلـى أي كلام شئت وأزل أجراءه عن مواضعها وضعها وضعًا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في قوله(٢) :

قِفَـا نَـبْكِ مِنْ ذِكرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ مِـن نَـبْكِ قِفَا حَبيبِ ذِكْرى ومَنْـزِلِ

ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها ؟"(٣).

يواصـل الجرجاني مناقشة القضية على نحو علمي دقيق، موردًا الدليل تلو الآخر على ما يؤكّد رأيه ويُفنّد آراء الآخرين، ومن ذلك أنه لو صحّ توهم بعض البلاغيين أنّ الفـصاحة تـتحقق في اللفظ وحده، لكان بالإمكان الحكم على أي لفظة بالحسن أو

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٥٣.

(٢) صدر بيت لامرئ القيس، وهو مطلع معلقته، وعجزه بِسَقْطِ اللّوى بَيْنَ الدّخُولِ فَحَوْمَلِ.

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص٣٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القبح بمجرّد سماعها، غير أنّ الأمر على خلاف ذلك، إذ لو صحّ هذا الوهم لوجب على المستمعين العلم بالكلمات الفصيحة وتمييزها عن غيرها من الكلمات، وهذا باطل في رأي الجرجاني، إذ إن الحكم على الكلمة بالفصاحة لا يكون إلاّ بعد أن يفهم معناها مع ما يجاورها من كلمات، وهذا لا يتم إلا بعد فهم المعنى ثم تحديد دور كل كلمة في الجملة باعتبارها مجتمعة مع ما يجاورها من الكلمات لتدل على المعنى المطلوب، يقول عبدالقاهر :"لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو أن تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة؛ لأنّها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً، وإذا بطل أن تكون محسوسة، وجب الحكم ضرورة، بأنها صفة معقولة. فإنا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس إلا دلالته على معناه"[1].

وعلى ذلك، فالفصاحة لا توجد في الكلمة المفردة، بل يشعر بها المتكلم عند سماعها في السياق، فلا يحس بفصاحة الكلمة من أجل جرسها الموسيقي، ولا لأن معناها قوي، بل المزيّة تقع باتصالها مع ما قبلها وما بعدها. "فإذا قيل : إنّ لفظة "اشتعل" في قوله تعالى : ﴿واشتعل الرأس شيبـًا﴾[2] في أعلى مراتب الفصاحة، فإننا لا نوجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس، معرّفـًا بالألف واللام، ومقرونـًا إليها الشيب منكرًا منصوبـًا"[3].

وينتهي الجرجاني إلى تأكيد فكرته، وهي أنّ الألفاظ لا تتمايز من حيث هي ألفاظ مفردة، وإنما تكون لها المزيّة حينما تنضم إلى بعضها مكوّنة جملاً وعبارات،

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٠١.
(٢) سورة مريم، آية ٤.
(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعلّ الدافع من وراء مناقشة هذه الفكرة في معظم مواضع الكتاب هو محاولة الجرجاني نفـي تلـك الآراء التي كانت سائدة في بيئة النُقّاد والبلاغيين العرب، فمنذ أن أطلق الجـاحظ مقولته الشهيرة "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقـروي والمـدنيّ، وإنـما الشأن في إقامة الوزن وتـخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثـرة المـاء وفي صـحّة الطبع وجودة السّبك، فإنـما الشعر صناعة وجنس من التـصوير"(١). انـشغل جلّ النقاد والبلاغيين بقضيّة اللفظ والمعنى، فتكلّموا على تنافر الحروف وملاءمة الألفاظ وتـماثلها، وقسّموا الألفاظ إلى حوشيّة وعاميّة وجزلة.

ويـرى أحمـد مطلـوب أن سبب عناية الجاحظ الكبيرة باللفظ ودفاعه عنه هو الـصراع الذي كان مشتعلاً بين العرب والأعاجم، إذ تشيّع الأعاجم للمعنى تشيعـاً كبيرًا واتجه العرب إلى اللفظ يعظمونه تعظيمـاً"(٢).

رفـض الجـرجاني كما تبيّن كل الآراء التي تفصل بين اللفظ والمعنى أو تفضل أحدهما على الآخر، وانتهى بحثه إلى تقديم المعاني على الألفاظ، لا من حيث أهميتها بل من حيث موقعها في العملية الفكريّة، يقول الجرجاني : "واعلم أن ما ترى أنه لابُدّ منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظام الخاص ليس هو الذي طلبته في الفكر، ولكنّه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث أنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنّها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون أولاً في النطق، فأما أن تتصوّر في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواضعه البلغاء فكرًا في نظم

(١) الجاحظ : الحيوان، ١٣١/٣.

(٢) انظر : مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص ٩٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه؛ لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن"[1].

ولعلّ مثل هذا الرأي يوهم بأن الجرجاني من أنصار المعنى على حساب اللفظ، وهذا الوهم وقع به كثير من الباحثين الذين اتهموا الجرجاني بأنه من أنصار المعنى وأنّه غالى في إعطائه القيمة كلّها دون اهتمام باللفظ، غير أنّ الأمر على خلاف ذلك، فالجرجاني كان يناقش القضيّة وفق رؤية علميّة دقيقة، وهو حينما قال بأسبقيّة المعنى على اللفظ كان يحاول تصحيح الخطأ الذي شاع آنذاك، إذ توهّم بعض البلاغيين أن الألفاظ تسبق المعاني في العملية الفكريّة. ومردّ وهمهم هذا هو أنهم نظروا إلى أحوال المستمعين لا إلى أحوال المتكلمين، ذلك أن المستمع يواجه اللفظ أولاً، ومن ثم يستقيم له المعنى الذي يقصده المتكلم، غير أن المسألة لا تقاس وفق هذه الرؤية، فتأليف الكلام عمليّة فكريّة منتظمة، إذ يطرأ المعنى الذهني الذي يحاول، المتكلّم التعبير عنه أولاً وحينما ينتظم هذا المعنى ويتم في ذهن المتكلّم، يتم التعبير عنه بالألفاظ التي هي أول ما يواجه المستمع، وفق هذه الرؤية يُفهم كلام الجرجاني الذي كرره مرارًا من أن الألفاظ خدم للمعاني وتابعة لها، يقول الجرجاني في ذلك مؤكداً رأيه ومصححاً ما شاع من خطأ :"وشبيه بهذا التوهم منهم أنّك قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع فإذا رأى المعاني لا ترتب في نفسه إلاّ بترتيب الألفاظ في سمعه ظنّ عند ذلك أنّ المعاني تبع للألفاظ وأن الترتيب فيها مكتسب من الألفاظ ومن ترتيبها في نطق المتكلم. وهذا ظن فاسد ممن يظنّه، فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام أو المؤلف له والواجب أن ينظر إلى حال المعاني، معه لا مع السامع، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال أن يكون الترتيب فيها تبعاً لترتيب الألفاظ ومكتسباً عنه؛ لأن ذلك يقتضي

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٥٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أن تكـــون الألفـــاظ سابقة للمعاني ،وأن تقع في نفس الإنسان أوّلاً ثم تقع المعاني من بعـــدها وتالـــية لها بالعكس مما يعمله كل عاقل إذا هو لم يأخذ عن نفسه و لم يُضْرب حجابٌ بينه وبين عقله"[1].

هكذا يتضح أنّ الجرجاني لم يكن من أنصار المعنى على اللفظ، بل إنه كان يناقش المـــسألة بموضـــوعيّة وفق رؤية نقدية فذّة، فيقرر النتائج كما يتوصل إليها عن طريق التحلـــيل العمـــيق لـــلآراء. وقد استفاد من آراء عبدالقاهر هذه عدد كبير من النقاد والبلاغـــيين الذين جاءوا بعده، ولعلّ أبرزهم كان حازم القرطاجني الذي استغل آراء الجرجاني وأضاف إليها فقدّم كثيرًا من الآراء النقدية الهامة التي ضمّها في كتابه "منهاج الـــبلغاء وسراج الأدباء"، يقول القرطاجني مؤكدًا فكرة الجرجاني بأسبقية المعاني :"إنّ المعـــاني هي الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّـــر عـــن تلـــك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبّر به هيئة لتلك الـــصورة الذهنـــية في أفهام السامعين وأذهانـــهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ"[2].

يتضح من ذلك أنّ المسألة لم تكن مسألة انتصار للمعاني على الألفاظ، وإنما هي تقرير للحقائق التي تثبت المناقشة والتحليل. يؤكد ذلك أنّ الجرجاني وفي مواضع عدّة من الكتاب، كان ينعى أن تتحقق القيمة الفنيّة للشعر لأجل محتواه، دون مراعاة لطريقة تألـــيفه وأسلوب نظمه، يقول الجرجاني رادًا على الذين يعطون المزية والفضل للمعنى دون مـــراعاة للصياغة وأسلوب التأليف : "واعلم أنّ الداء الدوي والذي أعيا أمره في

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٠٧.

(٢) القرطاجنـــي، حـــازم : مـــنهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق : محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ص ١٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذا الباب غلط من قدّم الشعر بمعناه وأقلّ الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزيّة إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى". ويقول : "ما في اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلاّ بمعناه؟ فأنت تراه لا يقدّم شعرًا حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن مال إلى اللفظ شيئًا ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة، ثم لا ينظر في حال تلك الاستعارة أحسنت بمجرّد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه أم للأمرين، ولا يحفل بهذا وشبهه قد قنع لظواهر الأمور وبالجمل وبأن يكون كمن يجلب المتاع للبيع إنّما همّه أن يروّج عنه"(١).

ويمكن القول إنّ الجرجاني يتفق في نظريته هذه مع الجاحظ على نحو كبير، فحينما أطلق الجاحظ مقولته : "المعاني مطروحة في الطريق". كان لا يهدف إلى تعظيم شأن الألفاظ وإعطائها المزيّة وحدها، وإنما كان يقرر حقيقة مهمة مفادها أن الاستخدام الأدبي للغة يختلف عن الاستخدامات الأخرى لها بصياغته وأسلوب تأليفه، غير أنّ معظم النقّاد الذين جاءوا بعده فهموا كلامه على نحو يختلف عما أراد، فبالغوا في الفصل بين اللفظ والمعنى ودرسوا كلاً منهما بشكل منفصل عن الآخر، ولقد فهم عبدالقاهر ما قصده الجاحظ فهمًا يختلف عن معاصريه.

ويورد الجرجاني الأمثلة التي تؤكد الفكرة وتزيل الإبهام عن كلام الجاحظ يقول : "سبيل المعاني سبيل أشكال الحلي كالخاتم والشنف والسوار، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلاً ساذجاً لم يعمل صانعه فيه شيئًا أكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم إن كان خاتمًا، والشنف إن كان شنفًا، وأن يكون مصنوعًا بديعًا قد أغرب صانعه فيه، كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلاً ساذجًا عاميًّا موجوداً في كلام النّاس كلّهم، ثم تراه نفسه وقد عمد إليه

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٩٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البصير شأن البلاغة وإحداث الصور والمعاني، فيصنع فيه ما يصنع الصَّنَع الحاذق حتى يُغرب في الصنعة ويدق في العمل ويبدع في الصياغة، وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت، وأمثلته نصب عينيك من أين نظرت، تنظر إلى قول الناس : (الطبع لا يتغير) ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه، فترى معنى غفلاً عاميّاً معروفاً في كل جيل وأمّة، ثم تنظر إليه في قول المتنبي :

يُرادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُم   وتَأْبَى الطِّبَاعُ على النَّاقِلِ

فتجده قد خرج في أحسن صورة، وتراه قد تحوّل جوهرة بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئاً"(١).

إن بيت المتنبي السابق قائم على أحد المعاني المعروفة التي يتداولها الناس، غير أن ما يميّز بيت المتنبي عن المعنى الأصلي هو أسلوب صياغته، إذ إنه خَرَج في صيغة أدبية مميّزة، من هنا يتضح أنّ الفرق بين الاستخدام الأدبي للغة والاستخدامات الأخرى يكون في أسلوب صياغتها وطريقة تأليفها، وفق هذه الرؤية يفهم الاهتمام الكبير الذي أولاه الجاحظ ومن بعده الجرجاني، للصياغة وأسلوب التأليف، إذ بالصياغة تتجلى الفروق بين اللغة المبدعة واللغة العادية فالمسألة إذن ليست مسألة تفضيل لفظ على معنى أو معنى على لفظ، وإنما هي اهتمام واضح بالصياغة والتصوير التي هي جوهر العملية الإبداعية وأساسها.

ولعلّ مثل هذا الرأي الذي قال به كلٌّ من الجاحظ والجرجاني، تجده عند كثير من النقاد المحدثين، فالشكلانيون الروس الذين يعدهم دارسو النقد الأدبي من المصادر التي اتكأت عليها النظريات البنيوية، ينظرون إلى المعنى على أساس أنه مادة خام تنتظر يد

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣١١.

المؤلـــف البارع الذي ينظمها، ذلك أنّ جوهر العملية الإبداعية في نظرهم لا يكون إلاّ بأسلوب التأليف الذي يعطي الميزة للكلام الأدبي عمّا سواه(١).

يتضّح ممّا تقدم "أنّ عبدالقاهر المؤمن بنظرية النظم وتوخي معاني النحو، لا يمكن أن يميـــل إلى الألفاظ كل الميل فيجعلها أساساً للمفاضلة، ولا يمكن أن يجنح إلى المعنى الخالي، من كل مزيّة وإن كان هو الذي يخطر في الذهن ثم يتبعه اللفظ، ولذلك مال إلى مـــا أشار إليه الجاحظ وهو الصياغة والتصوير ليوفق بين اللفظ والمعنى، ويجمع بينهما بعـــد أن رأى جماعة تسرف في تقدير اللفظ وأخرى تسرف في تقدير المعنى. وهو في هذه المسألة قضى على ثنائية اللفظ والمعنى التي شغلت النقاد القدامى زمنـــاً طويلاً"(٢).

المبحث الثاني: الكلمة والسيـــــــــاق :

تبـــيّن في الجزء الخاص بالكلمة والتركيب في هذه الرسالة أنّ معظم الآراء النقديّة العـــربية الـــتي اهتمّت باللّفظ والمعنى لم تخرج –قبل عبدالقاهر الجرجاني– عن حدود الـــبحث في ماهـــية كل منهما منفصلاً عن الآخر، إذ إنّ معظم البلاغيين قد قصروا اهـــتمامهم في كـــنه اللفظة المفردة وســـماتـــها والدلالة التي تحيل عليها، أو في المعنى وحـــده فقـــسموا المعاني إلى شريفة ومبتذلة ومكررة ومبتدعة وما إلى ذلك دونـــما اهـــتمام بالسياق النّصّي الذي يتضمّن اللفظ والمعنى معـــاً والذي لا يحتمل فصل كل منهما عن الآخر.

لقد كان عبدالقاهر مؤمنـــاً أن إعجاز القرآن اللغوي لا يمكن أن يتجلّى في لفظهِ دون معناه، أو في معناه دون لفظه، وهو في محاولته البحث في كنه هذا الإعجاز لم ترق لـــه الآراء الـــتي ســـاقها من سبقوه للتدليل على هذا الإعجاز. وفي معرض بحثه هذا

---

(١) للاطـــلاع علـــى آراء الشكليين الروس، انظر : سلدن، رامان : النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة : جابر عصفور، دار قباء القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٨، ص ٣٥.

(٢) مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص ١٩٧٨م، ص ١١٨.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

اســتطاع كمــا تبــيّن أن يخلص إلى "نظريّة النظم" التي استطاع من خلالها أن يخرج الدراسات النقدية والبلاغية من إطار اللفظ والمعنى إلى إطار الأسلوب، وقد كان ذلك بما نحا إليه من نظر إلى طرفي القضيّة "اللفظ والمعنى"، وما رآه من تطابق المفهومين، بعد أن ركّــز جل جهده في مناقشته خطأ الفصل بينهما وما ترتب على ذلك الفصل من مبالغات تعلّقت تارة بتقديم اللفظ وأخرى بنصرة المعنى(١).

يــؤكد الجرجاني أنه لا يمكن أن تتحقق القيمة اللغوية للفظة إلاّ في سياق ينظمها مــع غيرها، كما أنّ هذا السياق هو ما يحدد المعنى الحقيقي لكل لفظة حسب موقعها منه، وعلاقتها بمكوّناتها النصيّة الأخرى، فيقول عبدالقاهر "فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فســـــــــاد"(٢).

يعني الجرجاني من ذلك أنّ العلاقة بين الدال والمدلول ارتجالية لا تخضع إلى تعليل ولا يمكن أن تفسّر، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لــما صحّت مقولة الجرجاني، إذ لو كانت هنالك علاقة أصليّة بين الدال والمدلول، لفسد الأمر إن كان واضع اللغة قد قال (ربض) مكان (ضرب) على سبيل المثال.

فهذا السياق هو الذي يحدث تناسق الدلالة، ويبرز المعنى على وجه يقتضيه العقل ويرتــضيه، ويربط الألفاظ في سياق هو وليد الفكر، ولا يضع الفكر لفظة إزاء أخرى إلاّ لأنّ لــها معنىً ودلالةً حسب السياق.

فالســياق اللغوي هو ما يعطي اللفظة قيمتها ويحدد معناها، والسياق كذلك هو المعــيار الذي يتحدد بناء عليه إن كان الاستخدام اللغوي على سبيل الحقيقة أو المجاز، كما أنّه يعطي إمكانات تأويل مستمرة. وعلى هذا النحو فإنّ الجرجاني يتميّز بين حمل

---

(١) انظــر : صمود، حمادي: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعية التونسية، ١٩٨٨م، ص ٤٦٦.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٥٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اللفـــظ علـــى ظاهره أو حمله على المجاز، من خلال السياق الذي يرد هذا اللفظ فيه، ولـــذلك فهو يرفض مثلاً أن يوافق الآخرين الذين فسّروا كلمة (قلب) الواردة في الآية الكريمة ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[1]، بالعقل. إذ يقول مستدلاً عن طريق الـسياق علـــى رأيه : "فأما تفسير من يفسّر على أنه بمعنى من كان له عقلٌ فإنه إنما يصح على أن يكون قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة، فأمّا أن يؤخذ به على الظاهر حتى كان القلب اسماً للعقل، كما يتوهمه أهل الحشو ومن لا يعرف مخارج الكلام فمحال باطل؛ لأنه يؤدّي إلى إبطال الغرض من الآية وإلى تحريف الكلام عن صورته، وإزالة المعنى عن جهته، وذاك أن المراد به الحث على النظر والتقريع على تركه، وذم من يخل به ويغفل عنه، ولا يحصل ذلك إلا بالطريق الذي قدمته، وإلا بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر كأنه ليس بذي قلب كما يجعل كأنه جماد، وكأنه ميّت لا يشعر ولا يحس وليس سبيل من فسّر القلب هاهنا على العقل إلا سبيل من فسّر عليه العين والسمع في قول الناس هذا بيّن لمن كانت له عين ولمن كان له سمع ... وأجرى جميع ذلك على الظاهر فاعرفه"[2].

راح عبدالقاهر يتأمّل العلاقات السياقية بين أجزاء العبارة ورأى أنّ الألفاظ المفردة لا تـــدرك وحـــدها داخل علاقة، وأنه لا سبيل إلى إفادتـــها إلاّ بضم كلمة إلى كلمة ليـــصبحا تعـــبيرًا : "واعلم أنه لا نظم في الكلمة ولا ترتيب حتى يتعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعـــــــــــــض"[3].

إن تحقـــق شـــرط العملية الفكرية يتطلب تلاؤمـــاً بين الألفاظ في السياق الذي يتضمنها كي تشترك جميعها بدلالتها الخاصة حتى يتشكّل الكل، فأهمية الألفاظ تكمن

---

(1) سورة ق، آية ٣٧.

(2) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٣٤.

(3) المصدر السابق، ص ٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حـسب مـوقعها من السياق، ففصاحة الألفاظ وتـمكنها في مواقعها من الكلام إنما جـاءت مـن الـسياق اللغوي، لا من كونـها فصيحة بذاتـها فليس هنالك لفظة اكتـسبت الفـصاحة بمعزل عن سياق، وذلك أنّها كما يؤكّد الجرجاني مرارًا تكون حـسنة مقبولة في موقعها ضمن سياق لغوي، وقد تكون قبيحة لا تنسجم ومعطيات السياق الذي يتضمنها في موضع آخر. ولبيان رأيه يستشهد الجرجاني بعدد من الأمثلة، موضـحـًا كـيف تتفاوت دلالة اللفظة وفصاحتها من سياق لآخر. يقول الجرجاني :"ومما يشهد لذلك أن ترى الكلمة تروقك، وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة للصمّة بن عبدالله القشيري :

تلفّـتُّ نَحْـوَ البَـيْتِ حَتّـى وَجَدْتُنـي وَجِعْـتُ مِـنَ الإصْـغَاءِ ليـتاً وأخْـدَعا

وبيـت البحتري :

وإنّـي وإن بلّغْتَنـي شَـرَفَ الغِنَـى وأعْـتَقْتَ مـن رِقّ المطامِـع أخْدَعـي

فإنّ لـها في هذين المكانـين ما لا يخفى من الحسن ثم تأمّلها في بيت أبي تمام :

يـا دَهْـرُ قَـوّمْ مِـنْ أخْدَعَـيْكَ فقـدْ أضْـجَجْتَ هـذا الأنـامَ مِـن خُـرُقِك

فتجد لـها من الثقل على النفس والتنغيص أضعافَ ما وجدت هناك من الرّوح والخفة والإيناس والبهجـة"(1).

يُستخلص من ذلك أنّ هناك معاني ثانوية لكل لفظة وليس هناك معنى واحد ثابت لـها. فالكلمة تظل تحمل الكثير من المعاني حتى توضع في سياق يـمنحها معنى محددًا بظلالـه النفـسيّة وإشعاعاته الخاصة، يقول عبدالقاهر : "ليس الغرض بنظم الكلم أن

---

(1) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص٥٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالاتـــــها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"(١).

ربـــط عبدالقاهر موقع الكلمة من السياق بتوخي معاني النحو :"ليس من فضل ومزيّة إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم، وإنـــما سبيل هـــذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش فكما أنّك ترى الرجل قد تـــهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخيير والتدبّر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها وكيفيّة مزجه لـــها وترتيبه إياهـــا إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ،وصورته أغرب، كـــذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنـــها محصول النظم"(٢).

يتـــضّح ممـــا سبق أنّ الجرجاني يلحّ على إعطاء القيمة للفظة داخل السياق الذي يتـــضمنها، ولعـــلّ ما يؤكّد رأي الجرجاني هو اختلاف دلالة الكلمة الواحدة وقيمتها البلاغية بحسب السياق الذي ترد فيه.

ويرى بدوي طبانة أنّ عبدالقاهر الجرجاني، قد غالى في تجاهل قيمة اللفظة مفردة خارج سياق نصّي فيقول :"فالألفاظ المفردة إذن- بغض النظر عن معناها المستوحى من السياق- لـها ظلال مفردة تستمدها مما وراء الشعور من الذكريات والصور التي صاحبتها في تاريخها الشخصي والإنساني على مرّ الزمن الطويل، ثمَّ لـها كذلك ظلالـها في نسق كامل، والظلال الأولى ينكرها رجل ناقد مثل "عبدالقاهر"؛ لأنه لا

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص٨٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يرى دلالة اللفظ إلا في نظم معيّن وهذه مغالاة منه، فللفظ المفرّد ظلّه الخاص وجرسه الموحي في كثير من الأحيان"[1].

ولعلّ في كلام طبانة السابق قصورًا عن فهم حقيقة مقصد الجرجاني حينما تحدّث عن قيمة اللفظة داخل سياقها، فالجرجاني لم يكن يعني أنّ اللفظة المفردة لا تحيل على دلالة ما، أو لا تمتلك إيحاءات خاصة، غير أنّ ما يعنيه كان إثبات القيمة الأسلوبية التي لا تتحقق إلا في السياق، فالسياق هو الذي يجعل النظم ممكنًا، وهو ما يسوّغ التفاوت والاختلاف في أساليب التأليف بين شخص وآخر.

فمكان اللفظة من السياق يمنحها فصاحتها وجمالها وتناسقها. ولو كانت القيمة الأسلوبية والفنيّة يمكن أن تتحقق في اللفظة مفردة لسقطت نظرية الجرجاني، ولغاب التمايز الذي يحصل بين أساليب التأليف، ومما يؤشرّ على ذلك أن القرآن الكريم قد استخدم الألفاظ العربية التي يستخدمها العرب، غير أن قيمته الإعجازية تجلّت في أسلوبه الخاص الذي جاء حصيلة نتاج لغوي خاص يفوق القدرة البشريّة، وإن استخدم ذات الألفاظ التي يعرفونها ولم يخرج عنها.

إن المتتبع لآراء الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، يلاحظ أنّ هذا العالم الفذّ قد استطاع الوصول إلى نتائج مهمة وملاحظات قيّمة، تتفق وكثيرًا من آراء علماء اللغة والنقاد المحدثين، ولعلّ آراء الجرجاني كانت كفيلة لو أحسن فهمها واستغلالها بالإسهام في إقامة نظريات لغويّة ونقدية عربيّة همّة.

يعدّ فرديناند دي سوسير واحدًا من أبرز هؤلاء العلماء؛ فقد اتفقت آراؤه وما توصّل إليه الجرجاني، إذ يقارن دي سوسير اللغة بلعبة الشطرنج، فالقواعد والقوانين التي تحكم لاعبي الشطرنج معروفة لجميع اللاعبين، غير أنّ أساليب اللعب وتقنياته

(1) طبانة، بدوي : التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص ٢٦٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تختلف من لاعب لآخر، بحيث يمكن لأي لاعب ابتكار أعداد لا حصر لها من أساليب اللعب. وهذه الأساليب المبتكرة هي ما يحقق التميّز بين لاعب وآخر. وعلى هذا النحو يكون استخدام الإنسان للغة، إذ إن كل فرد قادر على إنتاج النسق اللغوي الخاص به والأسلوب الذي يميّزه من غيره، فالإنسان يمتلك نسقاً من القواعد التي تعينه على إنتاج عدد لا نهائي من الجمل. وقد رفض دي سوسير الفكرة التي ترى في اللغة مجرّد كومة من الكلمات التي تتراكم تدريجياً عبر الزمن لتؤدّي وظيفة أوّليّة، هي الإشارة إلى الأشياء في العالم، فالكلمات ليست رموزًا تتجاوب وما يشير إليه، بل علامات مركّبة من طرفين متّصلين، أما الطرف الأوّل فهو إشارة منطوقة أو مكتوبة يسميها دي سوسير الدال وأما الطرف الثاني، فهو المدلول أو المفهوم الذي نعقله من هذه الإشارة. وقد ألّح على تأكيد فكرة هامة هي أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية، بمعنى أنه لا توجد صلة طبيعيّة بينهما، فاللّفظ (رجل) على سبيل المثال لا علاقة طبيعيّة بالبعد التصوري أو المفهوم الذي نعقله من هذا اللفظ إلاّ من حيث العرف اللغوي، فلو تصوّرنا أنّ واضعي اللغة كانوا قد أطلقوا لفظة رجل للدلالة على شيء آخر لكان ذلك دون أي إشكال.

فعناصر اللغة في فكر دي سوسير والبنيويين بعده لا تكتسب معناها إلا نتيجة كونها أجزاءً في نسق كلّي من العلاقات، وعليه فلا قيمة لأي مفردة إلاّ داخل السياق الذي يتضّمنها مع غيرها من المفردات(١).

المبحث الثالث : الجملة والسياق :

تظهر رؤية الجرجاني الخاصة للعلاقة بين الجملة والسياق الذي يتضمنها ضمن المعطيات الفكرية التي أقام بناءً عليها نظرية النظم. وقد عمل على تأسيس فهم جديد

---

(١) انظر : دي سوسير، فريدناند محاضرات في علم اللغة، ترجمة : أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة، الإسكندرية، ط٣، (د.ت)، ص ٣٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

للنحو العربي من حيث وظائفه الدلاليّة التي تتعدى مجرد الاهتمام بالقواعد النحوية والإعراب إلى اكتناه القيم الدلالية والبلاغية التي تتضمنها الاستخدامات النحوية الخاصة للغة في إطارها الوظيفي. فإذا كان النحويون العرب قد ظلّوا منشغلين زمنًا طويلاً بالعلل والأقيسة وأحوال البناء والإعراب والخلافات النحوية، فإنّ الجرجاني فتح بابًا جديدًا لدراسة النحو، منكرًا على النحاة إهمالهم للقيم الدلالية والبلاغية التي ينبغي أن يتوفر عليها الدرس اللغوي.

إنّ نظرية النظم في جوهرها تتخذ من النحو أساسًا لها، لكنّها تجاوزت الحدود التي كانت سائدة في بيئة النحاة حتى ذلك الوقت، إذ كانت عملاً منهجيًّا منظّمًا بقدر ما يتوخى دراسة الإعجاز في ضوء فهم جديد يقوم على دعامة من النحو وأحكامه، يتوخى أيضًا توسيع أفق النحو وتطويع أدواته، حتى بتقرير مواطن الحسن في لغة القرآن والشعر، يقول الجرجاني: "فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة النظم أو فساده، أو وصف بمزيّة وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزيّة وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، وجعلته يدخل ضمن أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(١).

إنّ النظم في جوهره هو النحو في أحكامه، غير أن الجرجاني لا يعني بأحكام النحو مجرد مراعاة الإعراب والقواعد التي تقف بالنحو عند حدود الحكم بالصحة والفساد مما يعتبر من لوازم الكلام، ولكن المقصود أيضًا هو مراعاة الصورة الذهنية

---

(١) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٧٨.

للمعـــنى في الكلام، أي مراعاة العلاقة التنظيميّة التي يمكن من خلالها أن نتبيّن ما للنّظم من مزيّة وفضل. ولو كان المقصود بأحكام النحو الوقوف عند الحكم بالقواعد النحوية فحـــسب لكان –كما يقول الجرجاني– "البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئـــًا مما يذكرونه لا يتأتى له نظم كلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحـــــــو"(١).

هكـــذا يكـــون الـــنظم في نظر الجرجاني هو الصورة التي بمقتضاها يتكون المعنى بالأســـلوب الذي هو أصح لتأديته. وأساس حصول ذلك هو عملية الاختيار التي تنفي الارتجالـــية عن أي استخدام لغوي، فالنظم لا يعني مجرّد ضم الشيء إلى الشيء كيفما جـــاء واتفق، وإنه يعني تأليف الكلام وفق علاقة خاصة يتطلبها المعنى ويتطلبها السياق العام.

إنّ تألـــيف الكلام في نظر الجرجاني هو ميزة فردية صرف، إذ إن إمكانات اللغة تتيح المجال أمام مستخدميها لابتداع أساليب خاصة، تميز كلاً منهم من الآخر، وهذا ما يجعل الكلام يتفاوت في مستوياته البيانية من شخص لآخر، وهو ما يفسر ذلك التميّز الـــذي تظهره لغة القرآن عن أيّة استخدامات لغوية أخرى، إذ لو كان الأمر في النظم مقـــصورًا على مراعاة أحكام النحو لتساوى في البلاغة كل كلام التزم النحو وراعى قـــواعده، غـــير أنّ الميّزة تكمن في عملية الاختيار التي يقوم عليها التأليف بوصفه أداءً فرديـــًا قائمـــًا على الاختيار من بين إمكانات هائلة تتيحها اللغة، ولعلّ أشد ما يتضح فـــيه أسلوب الجرجاني هذا يظهر في الأبواب التي عالج من خلالـــها ما اصطلح على تسميته بعلم المعاني الذي يختص بدراسة التقديـــم والتأخير والحذف والفصل والوصل وغيرهـــا، فإذا كان النحاة العرب قد تطرقوا إلى دراسة هذه الأساليب اللغوية فإنـــهم

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٠٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قصروا نظرتهم لها في نطاق لا يخرجها عن إطار الصواب والخطأ أو الجواز والوجوب وما إلى ذلك، أما الجرجاني فقد رفض فكرة أن يكون الاستخدام الخاص للغة الذي يخرج الكلام عن الأصل النحوي خالياً من أيّة قيمة فنيّة ودلالية، فلو كان الانحراف عن الأصل –دون الخروج عن قواعد النحو– لا يمنح الكلام مزيّة إضافية لكان علم المعاني بفروعه المختلفة ضربًا من العبث الذي لا مبرر له.

إنّ هذا الأسلوب الفذ الذي تعامل به عبدالقاهر مع أساليب التأليف المختلفة هو ما قاد إلى تأسيس علم المعاني الذي يقوم على الجمع ما بين النحو والبلاغة على نحو يظهر القيمة اللغوية والدلالية للجمل، وسأحاول توضيح رأي الجرجاني في كل من المواضيع التالية : التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف.

أ-التقديم والتأخير :

التقديم لغة السبق، والتأخير ضد التقديم، ومؤخر كل شيء خلاف مقدمه (١).

والتقديم والتأخير من الاصطلاحات البلاغية ومعناه :تركيب الكلام بطريقة يتوخى منها هدف بياني معيّن، يتحقق بتقديم أو تأخير كلمة أو جملة أو معنى في سياق معيّن(٢).

يعد عبدالقاهر أول من درس التقديم والتأخير من وجهة نظر بلاغية. وقد ورد فصل التقديم والتأخير عنده تطبيقًا على نظرية النظم، وأبرز أهميته في قوله : "هو باب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، مادة (قدم وأخر).

(٢) الناقوري، إدريس : المصطلح النقدي في نقد الشعر لقدامة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ج٥٣، ع٤ ، ص ٢٣٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكـــــان"[1].

قـــام الجرجاني بدراسة مفصلة للتقديم والتأخير، وقد رأى أن تقديم الشيء على وجهين :

١- تقديم على نيّة التأخير : وذلك كتقديم الشيء على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، ومثال ذلك خبر المبتدأ إذا قدّمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، نحو :"منطلق زيدٌ" و "ضرب عمرًا زيدٌ".

٢- تقديم لا على نيّة التأخير:ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابًا غير بابه، وإعرابـــــًا غير إعرابه كقولك في "ضربت زيدًا" و "زيد ضربته"، فأنت لم تقدم زيدًا على أن يكون مفعولاً منصوبًا بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء، وتشغل الفعل بضميره وتجعله في موضع الخبر له[2].

وذكـــر عبدالقاهر ما قاله سيبويه من أن النحويين لم يعتمدوا في التقديم والتأخير شـــيئـــًا يجـــري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، كأنّهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم[3]. وعاب الجرجاني عليهم تصغير شأن التقديم والتأخير، وعدّه ضربـــًا من التكلف أو الاكـــتفاء بالقول :"إنه قدّم للعناية والاهتمـــــــام من غير ذكر الأسباب والمعاني التي من أجلها يكون ذلك"[4].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص١٠٦.

(٢) انظر : المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) انظر : المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ورأى أنـــه "من الخطأ أنه يقسم تقديم الكلام إلى قسمين : فيجعل مرّة مفيدًا، وأخرى غير مفيد، وأن يعلل التقديم بالعناية أو بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذاك سجعه، وإنما أكد أن كل جملة من النظم لابُدّ وأن يقصد بها الدلالة على صورة معنوية خاصة[1]. وهو بذلك يخالف قدامة الذي يرى أن الشاعر يقدم ويؤخر حتى ينتظم له نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض"[2].

١-التقديم والتأخير في الاستفهام :

ذهـــب عبدالقاهر إلى أن التقديم والتأخير في الكلام يكون لعلل بلاغية يقتضيها النظم. ولتوضيح ذلك درس التقديم والتأخير مع الاستفهام بالهمزة، وذكر أمثلة مختلفة للاستفهام بالهمزة يليها الفعل مرّة، ويليها الاسم أخرى، مبينـــًا أنك :"إذا بدأت بالفعل فقلت : أفعلت؟ كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإذا قلت : أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل، وكان التردد فيه. ففرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم، ولا يخفي فساد أحدهما في موضع الآخر. فلو قلت : "أأنت فرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟"، قلت كلامًا غير صحيح؛ لأن الشك في الفعل لا الفاعل، فكان من الواجب تقديمه، وكذلك لو قلت :"أكتبت هذا الكتاب؟" قلت ما ليس بقول لفساد أن تقول في الشيء المشاهدالذي هو نصب عينيك أموجود أم لا؟"[3]. وعلى هذا إذا كانت الهمزة للتقرير، كما في قوله تعالى :﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾[4]، فإنّهم لا يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان، ولذا كان الرد بقوله : "بل فعله كبيرهم هذا" والهمزة في هذا تقرير بأن

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٩٩.

(٢) انظر: الناقوري، إدريس : المصطلح النقدي في نقد الشعر لقدامة، ص ٢٣٨.

(٣) انظر: الجرجاني : دلائل الاعجاز، ص ٩٩.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٦٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفعل قد وقعن وإنكار لحدوث الفعل، وتوبيخ لفاعله عليه، وتأتي لمعنى آخر، وهو أن يكون الفعل قد كان من أصله، ومثاله قوله تعالى: ﴿أصطفى البنات على البنين؟ ما لكم كيف تحكمون؟﴾[1]، فهذا رد على المشركين، وتكذيب لهم في قولهم. وإذا قدّم الاسم في هذا صار الإنكار في الفاعل ومثاله قولك للرجل قد انتحل شعراً: "أأنت قلت هذا الشعر؟، كذبت لست ممن يحسن مثله"، أنكرت أن يكون القائل، ولم تنكر الشعر[2].

هذا هو الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم إذا كان الفعل ماضياً. أما إذا كان الفعل مضارعاً، "فإن الاستفهام يفيد الحال أو الاستقبال، فإذا أردت به الحال كان المعنى شبيهاً بالماضي، فإذا قلت: "أتفعل؟"،كان المعنى على أنّك أردت أن تقرره بفعل هو يفعله، وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائن، وإذا قلت: "أأنت تفعل؟"، كان المعنى على أنك تريد أن تقرره بأنه الفاعل، وكان أمر الفعل في وجوده ظاهراً، وبحيث لا يحتاج إلى الإقرار بأنه كائن[3]. "وإن أردت بالمضارع الاستقبال، وبدأت بالفعل، كان المعنى على أنك تنكر الفعل نفسه وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون، فمثال ما لا يكون قول امرئ القيس:

أيَقتُلني والمشْرَفِيُّ مُضاجِعي ... ومَسنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ

ومثال ما لا ينبغي أن يكون كقول عُمارة اليربوعي:

أأتْرُكُ أنْ قلّتْ دراهمُ خالدٍ ... زيارَتَهُ؟ إنّي إذًا للئِيمُ

أما إذا بدأت الاستفهام بالفعل، فإن الإنكار يكون موجهاً إلى نفس المذكور ويكون المذكور ليس بموضع أن يجيء منه الفعل لعجزه، فإذا قلت: "أأنت تمنعني؟" فإن

---

(١) سورة الصافات، آية١٥٣، ١٥٤

(٢) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٠١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

معـــنى ذلك، إن غيرك الذي يستطيع منعي، ولست بذاك. وقد يكون المذكور ممن لا يجيء منه الفعل لعلو همته، ومثاله "أهو يسأل فلانـــاً؟ هو أرفع همة من ذلك"(١).

ويبيّن عبدالقاهر "أن تقديم المفعول في الاستفهام كتقديم الفاعل، يفيد إنكار أن يقع مثل ذلك الفعل على المفعول، ففي قوله تعالى : ﴿قل أغير الله اتخذ وليا﴾(٢)، إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليـًا(٣).

٢-التقديم والتأخير في النفي :

انتقل عبدالقاهر إلى التقديم والتأخير في النفي، ورأى، أنّك إذا قدمت الفعل فقلت : "ما فعلت"، كنت قد نفيت عنك فعلاً لم يثبت أنه مفعول، وإذا قدمت الاسم فقلت : "ما أنا فعلت" كنت قد نفيت عنك فعلاً ثبت أنه مفعول"(٤). وكذا الأمر في تقديم المفعول وتـــأخيره، فإذا قلت : "ما ضربت زيدًا" فقدمت الفعل، كنت قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد، ولم تعرض في أمر غيره لنفي أو إثبات، وتركته مبهمًا محتملاً. وإذا قلت : "ما زيدًا ضربت" فقدمت المفعول، كان المعنى على أن ضرباً وقع منك على إنسان، وظن أن ذلك الإنسان زيد، فنفيت أن يكون إياه"(٥). وحكم الجار والمجرور في الـــتقديم والتأخير حكم المفعول به، فإذا قلت :"ما أمرتك بـــهذا"، كان المعنى على نفـــي أن يكون قد أمرتك بذلك، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر، وإذا قلت "ما بـــهذا أمرتك، كنت قد أمرته بشيء آخر"(٦).

---

(١) ص ١٠٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية١٤.

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص١٠٦.

(٤) المصدر السابق، ص١٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣-التقديم والتأخير في الخبر المثبت :

مــا انطبق على الاستفهام والنفي طبّقه عبدالقاهر على الخبر المثبت، "فإذا قدمت الفاعل فقلت : "أنا فعلت" اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل"، والمعنى في هذا القصد ينقسم قسمين :

١- أن يكون الفعل قد أريد النص فيه على واحد فتجعله له، وتزعم أنه فاعله دون غيره. ومثال قولك :"أنا كتبت في شأن فلان، وأنا شفعت في أمره".

٢- أن يــراد التأكــيد للسامع بأن الفاعل قد فعل، وتمنعه من الشك، لذلك تبدأ بذكره، ومثاله قولك : "هو يحب الثناء"[١].

أورد عبدالقاهــر بعض الأمثلة التي تثبت أن تقديــم الفاعل يقتضي تأكيد الخبر للسامع وتحقيقه، فلاحظ أنّ هذا الضرب من الكلام يــجيء في الحالات التالية[٢]:

١- في ما وقع موقع الشك كأن يقول الرجل :"كأنك لا تعلم ما صنع فلان ولم يبلغك"، فيجيبه : "أنا أعلم ولكنني أداريه".

٢- في ما سبق فيه إنكار من منكر، كقولك :"هو يعلم ذاك وإن أنكر".

٣- في تكذيب مدع، كقوله تعالى :﴿وإذا جاؤوكـم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهـم قد خرجوا به﴾[٣].

٤- في ما القياس في مثله أن لا يكون، كقوله تعالى :﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهـم يخلقون﴾[٤].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١١٠-١١١.

(٢) انظر : المصدر السابق، ص ١١١-١١٥.

(٣) سورة المائدة، آية ٦١.

(٤) سورة الفرقان، آية ٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥- في كل شيء كان خبرًا على خلاف العادة، وعما يستغرب من الأمر نحو أن تقول : "ألا تعجب من فلان؟ يدعي العظيم، وهو يعي باليسير، ويزعم أنه شجاع، وهو يفزع من أدنى شيء".

٦- ومما يحسن ذلك فيه ويكثر. الوعد والضمان، كقول الرجل : "أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بالأمر". ويكثر في المدح أيضاً كقولك : "أنت تعطي الجزيل، أنت تجود حين لا يجود أحد".

٧- ويجيء أيضاً بعد واو الحال، كقولك : "أتانا والشمس قد طلعت"، وذلك أبلغ في استبطائك له من أن تقول : "أتانا وقد شعلت الشمس". وعكس هذا أنك إذا قلت : "أتى والشمس لم تطلع"، كان أقوى في وصفك له بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذي ظن أنه يجيء فيه، من أن تقول : "أتى ولم تطلع الشمس بعد"؛ هذا وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نابيًا، وإنما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبني الفعل عليه.

٨- ومما يدخل في هذا الحكم تقديم "مثل" و "غير" في نحو قولك :"مثلك رعى الحق والحرمة"، وقولك "غيري يفعل ذاك"(١).

وقف عبدالقاهر عند النكرة؛ تتقدم على الفعل أو يقدم الفعل عليها، ورأى أنك "إذا قلت : "أجاءك رجل؟"، فأنت تريد أن تسأله هل كان مجيء من واحد من الرجال إليه، فإن قدمت الاسم فقلت :"أرجل جاءك؟"، فأنت تسأله عن جنس من جاءه، أرجل هو أم امرأة؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آتٍ، ولكنك لم تعلم جنس ذاك الآتي"(٢).

---

(١) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١١١-١١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهكــذا لم يقــتف عبدالقاهر منهج النحاة في دراسته للمواضيع المتعلقة بالتقديم والتأخير، فلم ينظر إليها نظرة نحوية، ولم يدرسها دراسة قاعدية، بل درسها من خلال النظــر في تــركيب الجملــة من جهة الأسلوب، وطرق التعبير، وبيان المعاني والمزايا المستفادة من تقديم الكلم، وتحويلها من مكان إلى مكان(١).

ب- الفصل والوصل :

الفصل لغة : بوب ما بين الشيئين، والفصل من الجسد، موضع المَفصَل، وبين كل فصلين وصل، والفصل الحاجز بين الشيئين، وفصلت الشيء قطعته، والوصول خلاف الفصل. وصل الشيء بالشيء يصله وصلاً وصِلة، واتصل الشيء بالشيء لم ينقطع(٢).

والوصل في اصطلاح البلاغة عطف بعض الجمل على بعض، والفصل ترك هذا العطف والمجيء بالجُمل منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى(٣).

"أورد الجاحظ أنه قيل للفارسي : ما البلاغة؟ فقال معرفة الفصل من الوصل(٤).

يعدّ باب الفصل والوصل من أهم المباحث التي درسها الجرجاني، وأعطاها أهميّة بالغــة، إذ إنــه تجــاوز آراء الذين سبقوه، وحاول أن يبحث في هذا الموضوع بحثــاً مفصّلاً يقوم على التقسيم والتحديد والتعليل، وقد أشار إلى أهميّة هذا الموضوع ودقته، فــيقول : " لا نعلمُ شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف في

---

(١) انظــر : لاشــين، عبدالفــتاح : التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبدالقاهر الجرجاني، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٠م، ص ١٥٦.

(٢) ابن منظور : لسان العرب، مادة (فصل ووصل).

(٣) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٧٤.

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين، ٨٨/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مـــا حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع "ثم" وموضع "أو" من موضع "أم" وموضع "لكن" من موضع "بل"(١).

ثم يوضـــح مـــا لـــهذا الباب من صلة وثيقة بالبلاغة بقوله : "اعلم أن العلم بما ينبغـــي أن يضع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بـــهـــا منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة،ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه للأعراب الخُلّص والأقوام طبعوا على البلاغة ... وقد بلغ من قوّة الأمر في ذلـــك : أنّهم جعلوه حدًّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفـــصل من الوصل. ذلك لغموضه ودقّة مسلكه : وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل كسائر معاني البلاغة (٢): بدأ الجرجاني مناقشته للفصل والوصل بتقسيم العطف أولاً إلى قسمين رئيسيين، أولـــهما : عطف المفرد على المفرد، وفائدته تكون في أنّه يشرك الثاني في إعراب الأوّل وأنه إذا أشرك في إعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب، أي أنّ الواو تنقل الحكم الإعرابي من الأوّل إلى الثاني(٣).

ثم أخذ الجرجاني يبيّن مواضع الفصل والوصل :

١- رأى الجرجاني أن الجملتين لا تعطف إحداهما على الأخرى، إذا لم يكن بينهما مناسبة مثل "زيد قائم وعمرو قاعد" فلا يجوز العطف حتى يكون عمرو بسبب مـــن زيـــد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين بحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني لتعلق أحدهما بالآخر(٤).

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز ص ٧٧-٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤-١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأوضح عبدالقاهر أن الصفة والتأكيد لا يحتاجان إلى شيء يصلهما بالموصوف أو المؤكد سواء أكانت مفردة أم جملة، كقولك : "جاء زيد الظريف" و "جاء القوم كلهم"، وكقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾(1).

فقوله تعالى :﴿لا يؤمنون﴾ تأكيد لقوله ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾. وقوله "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم" تأكيد ثانٍ أبلغ من الأوّل؛ لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة(2).

وبيّن عبدالقاهر أنّ الفصل بين الجُمل يكون من أجل تحقيق غرض مقصود، ففي قوله تعالى :﴿إنما نحن مستهزؤن، الله يستهزئ بهم﴾ (3)، "يمتنع العطف؛ لأن الآية الأولى حكاية عن الكافرين أنهم قالوا ذلك، بينما الآية الثانية خبر من الله تعالى أن يجازيهم على كفرهم واستهزائهم، ويستحيل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً، فيكون حقهما الوصل. الأولى حكاية عن الكافرين أنهم قالوا ذلك، بينما الآية الثانية خبر من الله تعالى أن يجازيهم على كفرهم واستهزائهم، ويستحيل أن يكون الذي هو خبر من الله تعالى معطوفا على ما هو حكاية عنهم. وليس كذلك الحال في قوله تعالى : ﴿ومكروا ومكر الله﴾(4)؛ لأنّ الأول من الكلامين فيهما كالثاني، في أنه خبر من الله تعالى وليس بحكاية(5).

---

(1) سورة البقرة، آية ٦-٧.

(2) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٧٧.

(3) سورة البقرة، آية ١٤-١٥.

(4) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(5) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٧٨-١٨٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويذكر عبدالقاهر شيئًا آخر للفصل بين الجمل، وذلك إذا جاءت الجملة عقب ما يقتضي سؤالاً، فإنها تكون بمنزلة ما إذا صحّ بذلك السؤال، فمن ذلك قول الشاعر :

زَعَمَ العواذِلُ أنَّني في غَمْرَةٍ صَدَقوا، ولكنْ غَمْرتي لا تَنْجَلِي

لما حكي عن العواذل أنّهم قالوا : "هو في غمرة"، وكان ذلك مما يحرّك السامع، فيقول : "وما قولك في ذلك، وما جوابك عنه؟ "صدقوا..." ولو قال : "زعم العواذل أنني في غمرة، وصدقوا" لم يضع في نفسه أنه مسؤول، وأن كلامه، كلام مجيب"(1).

واستمرّ الجرجاني في تقديم الأمثلة مؤكّدًا القيمة البلاغية والدلاليّة التي تتحقق في الفصل أو الوصل، ثم انتهى في شأن فصل الجمل ووصلها إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١- جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكّد، فلا يكون فيها وصل أبداً لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه وهذا غير جائز.

٢- جملة يكون حالها مع التي قبلها كحال الاسم المختلف عن الذي قبله، إلاّ أنه يشاركه في الحكم ويدخل معه في معنى، وذلك أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً، فيكون حقهما الوصل.

٣- جملة يكون حالها مع ما قبلها حال الاسمين المختلفين في الحكم، بحيث لا تقوم بينهما أيّة صلة، وفي مثل هذه الحالة يمتنع الوصل.

---

(1) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٨٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فتـرك العطـف يكون إمّا للاتّصال إلى الغاية أو الانفصال عنها إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين حالين[1].

وقـد اهتم عبدالقاهر في الوصل بالواو؛ لأن الواو هي التي يعرض الإشكال فيها دون غيرهـا من حروف العطف، إذ لا تفيد سوى الربط بين المتعاطفين، وإشراك ما بعـدها في الحكـم لما قبلها. أما غيرها من حروف العطف، فإنـها تفيد إلى جانب الإشـراك في الحكم معاني أخرى، فإذا عطفت بواحدة منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة[2].

ولقـد استعصى على أفهام العلماء ذكر الواو وحذفها فيقول عبدالقاهر :"واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : "إنه خفي غامض، ودقيق صعب" إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب. وقد منع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف :"إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله، لا تطلب أنفسهم زيادة على ذلك، ولقد غفلوا غفلة شديدة"[3].

وبذلك وضع عبدالقاهر أسس الفصل والوصل التي كانت خير عون للبلاغيين من بعده، في ضبط الوصل وتحديده وتحليل مواضعه.

ج -الحـــذف :

الحذف لغـة : الإسقاط[4]، واصطلاحـاً: إسقاط بعض الكلام أو كله لدليل[5].يقول سيبويه : "اعلم أنـهم مما يحذفون الكلم، وإن كان أصله في الكلام غير

(1) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٨٨.

(2) المصدر السابق، ص ١٨٨-١٩٠.

(3) المصدر نفسه، ص ١٩٠.

(4) ابن منظور : لسان العرب، مادة (حذف).

(5) الزركـشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ) : البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم عيسى، البابي الحلبي، القاهرة، (د.ت)، ١١٥/٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذلـــك، ويحذفون ويعوّضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يـــستعمل حـــتى يصير ساقطـــاً"[1]. وسمّاه الجاحظ "الكلام المحذوف" مرّة، والإيجاز المحذوف أخرى[2]. وعدّ ابن جنّي الحذف من باب شجاعة العربيّة[3].

أولى عبدالقاهر الجرجاني الحذف اهتمامـــاً بالغـــاً وكان أبرز الذين تطرّقوا إليه بالـــشرح والتوضيح، محاولاً أن يبيّن القيمة البلاغيّة للحذف، وقد أشار بداية إلى أهميّة الحـــذف قائلاً :"هو دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بيانـــاً إذا لم تُبن"[4]. ثم أخـــذ يوضّح مواضع الحذف بذكر الأمثلة على ذلك ورأى أن حذف المبتدأ يطّرد في موضعين :

١-القطع والاستئنـــاف :

"فقـــد اعتاد الشعراء أن يبدؤوا بذكر الرجل، ويقدّمون بعضَ أمره، ثم يتركون الكلام الأول ويستأنفون كلامـــاً آخر. وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ مثال ذلك قول عمرو بن معد يكربٌ :

وعَلِمْـــتُ أنّـــي يَـــومَ ذا ك مُـــنَازِلٌ كَعْـــبَـــاً ونـــهـــدًا
قَـــومٌ إذا لَبِـــسُوا الحـــديـــد تنَمّـــروا حلَقـــاً وقِـــدًّا[5]

---

(١) سـيبويه، أبـو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : الكتاب، تحقيق : عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٧م.

(٢) الجـاحظ، عمـرو بـن بحر بن محبوب الكناني البصري أبو عثمان (ت ٢٥٥هـ) : البيان والتبيين، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت (د.ت)، (د.ط)، ٢٧٨/٢.

(٣) ابـن جنـي، أبـو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ) : الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، (د.ت)، ٣٦٠/٢.

(٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٢١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"ففي المثال السابق حذف المبتدأ وتقديره هُم في قوله : (قوم إذا لبسوا الحديد)، واكتفى الشاعر بذكر الخبر، غير أنّ مثل هذا الحذف لا يمثّل إشكالاً بالنسبة للمتلقين إذ يفهم من خلال السياق أن المبتدأ محذوف، ويستدل على هذا المبتدأ بما قبله ومن ثمّ فقد شكّل الحذف هنا قيمة بلاغيّة إضافة للبيت. ومن المواضع الأخرى التي يكثر فيها ذكر المبتدأ قول الشعراء بعد أن يذكروا الرجل : "فتى من صفته كذا، وآخر من صفته كيت وكيت. كقول عبدالله بن الزبير :

سأشْكُرُ عَمْرًا إنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي ... أيادِيَ لَمْ تُمْنُنْ، وإنْ هِيَ جلَّتِ
فَتىً غَيْرُ مَحْجوبِ الغِنَى عن صديقِهِ ... ولا مُظْهِرَ الشَكْوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ[1]

ويضرب الجرجاني عددًا من الأمثلة على مثل هذا اللون من الحذف، ثم يعلّق عليها قائلاً : "فتأمّل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحدًا واحدًا، وانظر إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف ، "إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ثم قلبت النفس عما تجد، وألطفت النظر في ما تحسّ به، ثم تكلّف أن تردّ ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه في سمعك، فإنّك تعلم أنّ الذي قلت، كما قلت وأنّ رُب حذف هو قلادة الجيّد وقاعدة التجويد"[2].

ويواصل الجرجاني مناقشة ألوان الحذف وأهمية كلّ منها مبيّنـًا أن حذف المفعول به يكون في موضعين [3]:

أ- ألاّ يكون للفعل مفعول مقصود يمكن ذكره، وإنّما المراد من الفعل الاقتصار على إثبات المعنى الذي اشتق منه دون التعرّض لذكر المفعول، كقوله : "فلان يحل ويعقد، ويأمر وينهى، ويضرُّ وينفَع"[4].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب- أن يكون للفعل مفعول مقصود، ولكنه يحذف لدليل الحال عليه، وينقسم إلى جليّ لا صنعة فيه، وخفي تدخله الصنعة، فمثال الجلي : قولهم أصغيت إليه؛ وهمّ يريدون أذني، وأغضيت عليه والمعنى "جفني". وأمّا الخفي الذي تدخله الصنعة فيتفنن ويتنوّع وهو أنواع[1].

١- أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم إما لجري ذكر أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه رتوهم لتثبت نفس معناه من غير أن تقدمه إلى شيء ،أو تعرض فيه لمفعول ذكره، ومثاله قول البحتري يمدح المتوكّل:

شَجْوُ حُسَّاده وغَيْظُ عِدَاهُ   أن يرى مبصرٌ ويسمع واعٍ[2]

المعنى : أغيظ شيء لأعداء المتوكّل، وسبب حزن حساده، أن يرى مبصرٌ محاسنه، ويسمع واعٍ أخباره وأوصافه. ويشرح الجرجاني القيمة التي أضافها الحذفُ إلى هذا البيت قائلاً : "المعنى - لا محالة - أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره وأوصافه، ولكنك تعلم على ذلك أنه كان يسرق علم ذلك من نفسه، ويدفع صورته عن وهمه، ليحصل له معنى شريف، وغرض خاص، وقال إنه يمدح خليفة وهو المعتز، ويعرض بخليفة وهو المستعين. فأراد أن يقول: "إن محاسن المعتّز وفضائله، يكفي فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع، حتى يعلم أنه المستحق للخلافة، والفرد الوحيد الذي ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها، فأنت ترى حسّاده وليس شيء أشجى لهم وأغيظ من علمهم بأنّ هاهنا مبصرًا يرى وسامعًا يعي، حتى ليتمنون أن لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها، وأذن يعي معها، كي يخفي

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مكان استحقاقه لشرف الإمامة، فيحذوا بذلك سبيلاً إلى منازعته إياها"(١).

ومثل ذلك أيضاً قول عمرو بن معد يكرب :

فَلـــو أنّ قَوْمِـــي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نطَقْـــتُ ولكِـــنَّ الـــرِمَاحَ أَجَرَّتِ

فالمفعول بـه للفعل (أجرت) حُذف، مما أضفى قيمة دلالية وبلاغية على البيت، ذلك أن الشاعر يريد أن يثبت أنّ الرماح حَبست الألسن عن النطق بالمدح والفخر، ومن ثم حبست لسانه وأجرته، وفي هذا قدرة بلاغيّة تفوق ذكر المفعول به لو أن الشاعر قال "أجرّتـــــني"(٢).

"أي أنّ "أجرّت" فعل متعدٍّ، ولو عداه إلاّ إلى عدّاه على ضمير المتكلم نحـــو"ولكـــن الرماح أجرّتني"، وأنه لا يتصور أن يكون ها هنا شيء آخر يتعدى إليه لاستحالة أن يقول : فلو أنّ قومي أنطقتني رماحهم، ثم يقول : ولكن الرماح أجرّت غيري، إلاّ أنّك تجد المعنى يلزمك أن لا تنطق بـــهذا المفعول ولا تخرجه إلى لفظك، والسبب في ذلك أن تعديتك له توهم ما هو خـــلاف الغـــرض، وذلـــك أن الغرض هو أن يثبت أنه كان من الرماح إجـــرار،وحبس الألـــسن عـــن النطق وأن يصحح وجود ذلك. ولو قال "أجرّتني" جاز أن يتوهم أنه لم يعنِ بأن يثبت للرماح إجرارًا ،بل الذي عناه أن يتبـــيّن أنـــها أجرّته، فقد يذكر الفعل كثيرًا والغرض منه ذكر المفعول، مثاله أنك تقول : أضربت زيدًا؟ وأنت لا تنكر أن يكون وقع الضرب منه علـــى زيد ،وأن يستجيز ذلك أو يستطيعه، فلما كان في تعدية "أجرّت" ما

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٢٨.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يــوهم ذلك، وقف فلم يعد ألبتة،ولم ينطق بالمفعول لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح"[1].

٢- أن يكون المفعول معلومـًا ليس لفعله مفعول سواه، بدليل الحال أو ما سبق من الكلام، فيحذفه المتكلم لتتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلص[2]، كقوله تعالى : ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾[3]. فقد حذف المفعول به في أربعة مواضع.

فالحـــذف في الآيات السابقة كان أكثر قدرة على توضيح المعنى المقـــصود، وهو قد أضفى دلالة مهمة لا يمكن أن تتوفّر لو لم يحذف المفعول به، ولتوضيح قيمة حذف المفعول به البلاغية والدلالية يواصل الجـــرجاني تعليقه على مثل هذا الشكل من الحذف فيقول : "ألا ترى أنّك إذا قلت : هو يعطي الدنانير : كان المعنى على أنّك قصدت أن تعلم السامع أنّ الدنانير تدخل في عطائه، أو أنه يعطيها خصوصاً دون غيرها وكان غرضك على الجملة : بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء في نفسه. ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه؛ بل مع من أثبت له إعطاء، إلا أنه لم يثبت له إعطاء الدنانير. فاعرف ذلك. فإنه أصل كبير عظيم النفع"[4].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص١٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣) سورة القصص، آية ٢٣-٢٤.

(٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٢٨.

ج- ومن الحذف الخفي قول البحتري(١) :

إذا بَعُدَتْ أَبْلَتْ وإنْ قرُبَتْ شَفَتْ فهِجْـرانُها يُبْلِـي ولُقْيانُهَا يَشفِي

ويذكـر عبدالقاهـر لـوَنـًا من الحذف يسمّى :الإضمار على شريطة التفسير"، وذاك مثل قول البحتري :

قـد طَلَبْـنا فَلَم نَجِدْ لَكَ في السُّؤ دُد والمَجْـدِ والمكـارِمِ مِـثْلاً

"المعنى : قد طلبنا لك مثلاً، ثم حذف؛ لأن ذكره في الثاني يدل عليه، ثم إن في المجيء به كذلك من الحسن والمزيّة والروعة ما لا يخفى ولو أنه قال : طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً فلم نجده، لم تر من هذا الحسن الذي تراه شيئاً"(٢).

وبـذلك أثبت الجرجاني من خلال هذه الأمثلة وغيرها، أن ما من اسم أو فعل يحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيه، ثم أصيب به موضع، إلاّ وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وإضماره في النفس أولى وآنس من النطق به. وتجد مأخـذه في الحـذف يشبه السحر، ويبهر الفكر، فرب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد لما في سياقه من اللطف والظرف وحسن التصوير.

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

النظم والدلالة

المبحث الأوّل: النظم والإعجـــــاز.
المبحث الثاني: الدلالة والإعجـــاز.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأوّل : النظم والإعجاز :

العَجْزُ لغة : الضعف، تقول عَجَزْتُ عن كذا أعْجَز، وفي حديث عمر : ولا تُلِثّوا بدار معجزة، أي لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيّش.

والمعجزة بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العجز : عدم القدرة.

ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق، ضد القدرة، الضعف من طرف، وتحقق الفوت والسبق للطرف الآخر. يقول الأعشى :

فذاك ولم يُعجِز من الموتِ ربَّهُ ولكنْ أتاهُ الموتُ لا يتأبّقُ[١]

والإعجاز في الاصطلاح : المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على يدي مدّعي النبوة مع تحديه قومه بها، وعن عجز قومه عن معارضته بمثلها، على وجه يدل على صدقه في زمان التكليف، وسمّيت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

والإعجاز:إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار العجز عن معارضته في معجزته الخالدة، وهي القرآن الكريم عبر الأجيال المتلاحقة[٢].

شغلت قضيّة إعجاز القرآن الكريم بيئات المتكلمين واللغويين، واتخذت مسارًا خاصًّا ضمن حقل النقد الأدبي، وعالجها كثير من النقاد واللغويين، وقد جاءت هذه الحيرة ردًّا على التحدّي الإلهي للعرب على أن يأتوا بمثله وتدرّج التحدّي؛ فتحدّاهم أوّلاً بالإتيان بمثل القرآن، وذلك في قوله تعالى : ﴿أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[٣].

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، مادة (عجز).

(٢) انظر : القطّان، مناع : مباحث علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) سورة الطور، آية ٣٣-٣٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فلما عجزوا تحدّاهم بمعارضة عشر سور مثله، وذلك في قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1].

وعندما عجزوا عن معارضة قدر منه، تحداهم بمعارضة سورة من مثله بقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[2].

وكرّر سبحانه وتعالى التحدّي مستفزًّا لهم جازمـًا بأنّهم لن يستطيعوا، حيث قال: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين﴾ [3].

وأخيرًا سدّ الله عليهم كل الطرق، فلن يستطيعوا الإتيان بمثل القرآن ولو حرصوا على ذلك، قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[4].

فالتحدّي أوّلاً، ثم عدم القدرة على المعارضة ثانيـًا، هما خير دليل لإثبات القرآن.

يقول القاضي عبدالجبّار: "الذي يدل على ذلك أنه ﷺ تحدى بالقرآن، وجعله دلالة نبوّته، وموجبـًا لاتّباعه وطاعته، والانقياد له"[5].

---

(١) سورة هود، آية ١٣.

(٢) سورة يونس، آية ٣٨.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٣-٢٤.

(٤) سورة الإسراء، آية ٨٨.

(٥) القاضي عبدالجبار المعتزلي: المغني في أبواب التوحيد والعدل، ٢٤٦/١٦.

© Arabic Digital Library- Yarmouk University

وردت تعـــريفات كثيرة للإعجاز أذكر منها تعريف القاضي عبدالجبار المعتزلي (٤١٥هـــ) "الذي خصّ الفصاحة في عدم القدرة على المعارضة"[١].

وحـــدّ الإعجـــاز عند علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـــ) : "هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجز هم عن المعارضة"[٢].

بعـــث الله ســـبحانه وتعالى كل نبي إلى قومه بمعجزة من جنس ما نبغ به قومه، فـــبعث الله موســـى عليه السلام بمعجزة إبطال السحر، وعيسى عليه السلام بعلاج المرضى، فأبرأ الأكمـــه والأبرص، وأحيا الموتى، يقول الجاحظ : "ولما كان أعجب الأمور عند قوم فـــرعون السحر، ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكامـــاً فيه منهم في زمانه، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه، وكشف ضعفه وإظهاره"[٣].

ولـــمّـــا بعـــث الله نبيّه محمدًا ﷺ إلى قومه وهم أهل الفصاحة والبلاغة تحداهم بـــبلاغة القرآن ونظمه، فعجزوا عنه. "ولـــمّا انتهوا إلى ذكر نبيِّنا محمد ﷺ وذكر ما كان الغالب على زمانه لم يذكروا إلا البلاغة والبيان والتصرّف في ضروب النظم"[٤]. يقول الجاحظ : "وكذلك دهر محمد ﷺ كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم، وأجلّهـــا في صدورهم حسن البيان، ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به، فحـــين اســـتحكمت لغـــتهم، وشـــاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله فتحدّاهم بما كانوا لا يشكوّن أنـــهم يقدرون على أكثر منه، فلم

---

(١) القاضي عبدالجبار المعتزلي : المغني في أبواب التوحيد والعدل، ٢٢٦/١٦.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـــ) : التعريفات، تحقيق : إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩٢، (باب الحاء).

(٣) الجـــاحظ : حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق : حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٣م، ص ١٤٥.

(٤) انظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٤٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يـــزل يقرعهم بعجزهم، وينقصهم على نقصهم، حتى تبيّن ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما أتاه الله نبيـــًا قط"[1].

وظـــل الإعجـــاز بالقرآن مستمرًا والتحدي به قائماً؛ لأن الله سبحانه وتعالى – أرسل نبيه محمد ﷺ للعالمين جميعاً.

فالمعجـــزات السابقة للقرآن انتهت بانتهاء الزمن الذي أحدثت فيه؛ لأنّها كانت حـــسيّة تخاطـــب البـــصر، أما معجزة القرآن فعقلية تخاطب العقول والبصائر. يقول الـــسيوطي :"وأكثر معجزات هذه الأمّة عقلية لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم؛ ولأن هـــذه الـــشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصت بالمعجزة العقلية الباقية"[2].

نستنتج مما سبق أن معجزة القرآن تختلف عن جميع المعجزات "من إعجاز القرآن أن يظـــلّ مطـــروحـــًا على الأجيال تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، ثم يظل أبدًا رحب الـــمـــدى سخي الموارد، كلما حسب جيل أنه بلغ من الغاية، امتدّ الأفق بعيداً وراء كـــل مطمح، عاليـــًا يفوق طاقة الدارسين"[3]. ولقد تعددت المذاهب القائلة بإعجاز القـــرآن ومـــن أبـــرز هـــذه المذاهب، مذهب الإعجاز النفسي، والإعجاز الغيـــبي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التضافري.

---

(1) الجاحظ : حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٧م، ص ٣/٤.

(2) الـــسيوطي : الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٧م، ٣/٤.

(3) عبدالـــرحمن، عائـــشة : الإعجـــاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر (د.ط)، (د.ت).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بدأ الاهتمام بالإعجاز قبل الجرجاني، فقد ألّف الجاحظ كتابـًا في إعجاز القرآن مـن جهـة نظمه سـمّاه "نظم القرآن"، وردّ على أستاذه النظّام رأيه في الصُرْفة[1]، فالقـرآن معجـز ببلاغة نظمه وبديع تأليفه فيقول : "ولو أنّ رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبيّن في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدّى بـها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها"[2].

ويستدل على ذلك بأن الله تعالى تحدّى العرب أن يأتوا بعشر سور من مثل كتابه العزيز في النظام والدقة في التأليف.

ويقال إنّ الواسطي (ت ٣٠٦هـ) هو أوّل من ألّف كتابـًا في الإعجاز سـمّاه "إعجـاز القرآن في نظمه وتأليفه"[3]. ورأى محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) أن إعجـاز القرآن الكريم في نظمه وتأليفه قال : "من أشرف تلك المعاني التي فضل بـها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه القريب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظـم مـثل أصغر سُوره الخطباء وكلّت عن رصف شكله البلغاء، وتحيّرت في تأليفه الشعراء"[4].

وذهـب الـرمّاني (ت ٣٨٤هـ) إلى أن وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهـات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة، والتحدي للكافة والصُرْفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة[5].

---

(١) الـصُرْفة : أي أنّ الله صـرف قـدرة العـرب وهمتهم أن يأتوا بمثل القرآن وجعل همتهم ممنوعة (منذهرة) عن المعارضة. انظر :الرسالة الشافية،ملحقة بكتاب دلائل الإعجاز،تحقيق محمود شاكر،ص ٢٥٣

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٨٩.

(٣) سلام، محمد زغلول : أثر القرآن في تطور النقد، ص ٦٨.

(٤) الطبري : تفسير الطبري، ٦٥/١.

(٥) الرماني : النكت في إعجاز القرآن، ص ٢٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ورأى الخطابي (ت ٣٨٨هـ) أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، وأشار إلى جانب آخر من جوانب الإعجاز، فقال : "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعهُ في القلوب وتأثيره في النفوس"(١).

وأولى الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) إعجاز القرآن أهمّية كبيرة في كتبه "إعجاز القرآن" و "نكت الانتصار لنقل القرآن" و "التمهيد في الردّ على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة".

ورأى أنّ القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ من ثلاثة وجوه (٢):

الوجه الأول: ما فيه من عجيب النظم، وبديع الرصف وروعة البلاغة، وأنه لا قدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله، ولا تأليف سورة أو آية منه.

الوجه الثاني: ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب.

الوجه الأخير: ما فيه من أنباء الأوّلين وقصصهم، وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلاّ من أكثر ملاقاة الأمم ودراسة الكتب مع العلم، على أن النبي لم يكن يتلو من قبله ولا يخطه بيمينه.

وردّ القاضي عبدالجبار إعجاز القرآن إلى فصاحته وبلاغته، وربط الفصاحة والبلاغة بالنظم، ويعد تعريفه للإعجاز من أكثر التعريفات دقة واختصاراً، يقول :

(١) الخطابي : بيان إعجاز القرآن، ص ٧٠.
(٢) الباقلاني : النكت – نكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق : سلام محمد زغلول، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، ١٩٧١م، ص ٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"معـــنى قولـــنا في القرآن إنّه معجز أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة مثله في القدر الذي اختص به"[1].

أما عبدالقاهر الجرجاني فقد اهتم بإعجاز القرآن الكريم، وألّف فيه رسالة وكتاباً هما : "الرسالة الشافية في الإعجاز" و "دلائل الإعجاز"، وأوضح في مقدمة رسالته أن الإعجـــاز يكمـــن في عجز العرب عن معارضة القرآن والإتيان بـــمثله ومن التقريع بالعجز عنه وبت الحكم بأنـــهم لا يستطيعونه ولا يقدرون أن يأتوا بـــمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة واحدة، ولو جهدوا جهدهم، وأجمع معهم الإنس والجن[2].

وســـخر عبدالقاهر من القائلين بالصرفة، وعلى رأسهم النّظام، ودحض قولـــهم وأوضـــح أنّ في سياق آية التحدي ما يدلّ على فساد هذا القول، وذلك أنّ الله تعالى لـــم يطلب من العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، بعد أن كانوا قادرين ثم منعهم.

ولقـــد أشـــار الجـــرجاني إلى موضـــوع الصرفة في دلائله إشارة عاجلة، وذلك لتخصيـــصه نـــهاية رسالته الشافية لمناقشة فكرة الصرفة، وتفنيد آراء القائلين بـــها، وردّهـــا جميعها بالدليل النقلي والحجج العقلية[3]. يقول الجرجاني في ذلك : "وذاك أنّه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله؛ لأنّه معجز في نفسه، لكن لأن أدخِل عليهم العجزُ عنه، وصُرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة، حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له، لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون

---

(١) القاضي عبدالجبّار : المغني في أبواب التوحيد، ٢٦٦/١٦.

(٢) انظر : الجرجاني : الرسالة الشافية، ص ٥٧٥، ص ٥٧٧، ص ٥٧٩، ملحقة بكتاب دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر.

(٣) انظر : الجرجاني : الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص ١٥٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإكبار منهم والتعجّب للذي دخل من العجز عليهم، ورأوه من تغيّر حالـهم، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً، وأن سُدّ دونه بابُ كان لـهم مفتوحـًا"[1].

وضرب مثلاً آخر يؤكد ما ذهب إليه من دليل على فساد الصرفة فيقول :"أرأيت لو أنّ نبيًّا قال لقومه : "إنّ آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة، وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم، وكان الأمر كما قال، ممّ يكون تعجّب القوم، أمِنْ وضعه يده على رأسه، أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟"[2].

ويعد الجرجاني التحدي دليلاً على إعجاز القرآن إذ يقول :"إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنّهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدوا إلى معارضته سمعوا كلامـًا لـم يسمعوا قط مثله، وأنّهم رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه، أو يدانيه، أو يقع قريبـًا منه لكان محالاً أن يدعوا معارضته وقد تحدّوا إليه، وقرّعوا فيهن وطولبوا به، وأن يتعرضوا لشبا الأسنّة، ويقتحموا الموت"[3].

وذكر عبدالقاهر أنّ الله تحدّى العرب بأن يأتوا بكلام عرفوه وخبروه "فلا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلومـًا للمطالب، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضـًا؛ وذلك لأنه لا يتصوّر أن يُقال : إنه كان عجز، حتى يثبت معجوز عنه معلوم"[4].

ويضرب الجرجاني مثالاً يدعم فيه موقفه من التحدي فيقول : "أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر : إنني أحدثت في خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها، لـم تتجه له عليه حجة، ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه، إلا من بعد أن يريه الخاتم، ويشير له

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة؛ لأنّه لا يصح وصف الإنسان بأنه قد عجز عن شيء، حتى يريد ذلك الشيء ويقصد إليه، ثمّ لا يتأتى له"(١).

وذكر الجرجاني أنّ هذا الوصف ينبغي أن يكون قد تجدد بالقرآن، وأمرًا لم يوجد في غيره، ولم يعرف قبل نزوله، وأورد عبدالقاهر احتمالات لوجوه التحدّي والإعجاز القرآني نفى أن يكون الإعجاز في واحد منها وهي(٢) :

١- الكلم المفردة: "فلا يجوز أن تكون في الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف، لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها، إذا كانت متلوّة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن".

٢- معاني الكلم المفردة:"لا يجوز أن تكون صفة الإعجاز فيها؛ "لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى "الحمد" و "الرب" ومعنى "العالمين" و "اليوم" و "الدين"- وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن".

٣- ترتيب الحركات والسكنات: "فلا يجوز أن يكون الوصف في ذلك "حتى كأنهم تحدّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن، وحتى كأن الذي بان به القرآن من الوصف، في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها عن بعض؛ لأنّه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في ""إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وجاهر"، "والطحنات طحنًا".

---

(١) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٢٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٩-٢٩٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٤- كلام يُجعل له مقاطع وفواصل : "فإن زعمَ زاعم أنّ الوصف الذي تحدّوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل، كالذي تراه في القرآن، لا يجوز؛ "لأنه أيضًا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة الوزن، وإنّما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو"[1].

٥- وليس الإعجاز في خفّة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان"[2].

٦- الاستعارة: "فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه، لم يبق إلا أن يكون الاستعارة، ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز، وأن يقصد إليها؛ لأنّ ذلك يؤدي أن يكون الإعجاز في أي معدودة، في مواضع من السور الطوال مخصوصة"[3].

٧- ليس الإعجاز في غريب القرآن؛ "إذ لم يتحد الله العرب أن يأتوا بالغريب الوحشي من الكلام لمعارضة كتابه؛ لأنّ كثيرًا من السور الطوال لا تحوي من الغريب شيئًا، ومن يتأمّل ما جمعه العلماء في غريب القرآن، يرى الغريب منه إلا في القليل، إنما كان غريبًا من أجل استعارة هي فيه، كمثل ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾[4]، ومثل ﴿خلصوا نجيًا﴾[5]، و ﴿فاصدع بما تؤمر﴾[6]، دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها، إنما ترى ذلك في كلمات معدودة كمثل ﴿عجّل لنا قطّنا﴾[7]، و ﴿ذات ألواح ودسر﴾[8]،

---

(١) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

(٤) سورة البقرة، آية ٩٣.

(٥) سورة يوسف، آية ٨٠.

(٦) سورة الحجر، آية ٩٤.

(٧) سورة ص، آية ١٦.

(٨) سورة القمر، آية ١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

﴿قد جعل ربك تحتك سريًا﴾[1]، ثم إنه لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريبـــًا، لكان محالاً أن يدخل ذلك في الإعجاز، وأن يصح التحدي به؛ ذلك لأنه لا يخلو إذا وقع التحدي به من أن يتحدى به من له علم بأمثاله من الغريب، ولو تحدى به مـــن لا علـــم له بأمثال ما فيه من الغريب. كان ذلك بـــمنـــزلة أن يتحدى العرب إلى أن يتكلّموا بلسان الترك"[2].

"فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر، وقيّد الخواطر والفكر، حتى خرست الشقاشق[3]. [4]"فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم عن مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنّهم تأملوه سورة سورة، وعشر عشر وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أجرى وأخلق، تبل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور. ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا. لم يدع في نفس بليغ منهم -ولو حك بيافوخه السماء- موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول. وخلدت القروم[5].

---

(١) سورة مريم، آية ٢٤.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩٦.

(٣) الشقاشِق : جمع شقشقة بكسر الشين. وهي لهاة البعير، أو شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج. ويقـــال للفـــصيح : هـــدرت شقاشقه، يريدون الانطلاق في القول، وقوة البيان، ويقال في مقابل ذلك خرست الشقاشق، الدلائل، ص ١٧.

(٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز، المدخل ص١٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٩. القروم: الفحول وهي حقيقة في الإبل ومجاز في الناس.

ويصل بنا الجرجاني إلى تأكيد أنّ الوصف الذي أعجزهم يختصّ بالفصاحة والبلاغة ودقّة النظم، وربط النظم بتوخي معاني النحو :

إنّي أَقُولُ مقالاً لستُ أُخفيهِ وَلَسْتُ أَرْهَبُ خَصْماً إنْ بدا فيهِ
مَا منْ سبيلٍ إلى إثْبَاتِ مُعْجِزَةٍ في النَّظْمِ إلاّ بِما أَصْبَحْتُ أُبْدِيهِ
فما لِنظْمِ كَلامٍ أَنْتَ ناظِمُهُ معنىً سِوى حُكْمِ إعْرابٍ تُزْجِيهِ[1]

"فإذا ثبت الآن أن لاشك ولا مرية في أن ليس النظم شيئًا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبت من ذلك أنّ طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنها معدنه ومعانه، وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها، غارّ نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخدع، وأنّه إن أبى أن يكون فيها كان قد أبى أن يكون القرآن معجزًا بنظمه، ولزمه أن يثبت شيئًا آخر يكون معجزًا به، وأن يلحق بأصحاب الصُرفة، فيدفع الإعجاز من أصله، وهذا تقرير لا يدفعه إلا معاند بعد الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزًا"[2].

وكما مرّ سابقًا فلم يكن عبدالقاهر أوّل من رد القرآن إلى النظم، فقد سبقه الجاحظ والرماني، والخطابي، والباقلاني، والقاضي عبدالجبار، ولكن هؤلاء لم يجعلوا النظم وحده الأصل في الإعجاز بل جعلوه وجهًا من عدّة وجوه. أمّا عبدالقاهر فقد جعله الوجه الوحيد للإعجاز. وقد وقف هؤلاء في تفسير الإعجاز على الآيات القرآنية يبيّنون روعة تعبيرها وبلاغة نظمها، أمّا عبدالقاهر فقد خاض في قضيّة الإعجاز على ضوء المقاييس البلاغيّة، فلم يقصر بحثه على الآيات القرآنية بل تناول شواهد كثيرة من الشعر مبيّنًا عبقرية التعبير في الشعر العربي، وموازنًا بين التعبير القرآني والتعبير

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، المدخل، ص ١٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٨٢-٣٨٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشعري. وقد لاحظ ذلك غير باحث من الذين تحدّثوا عن عبدالقاهر، وعدّوه عيبـــًا مـــن العيوب التي لحقت بمنهجه، يقول مصطفى ناصف :"يؤخذ عليه أنه لم يعن العناية المرجوة بنصوص القرآن فكان واجبـــًا أن يظفر تناول التعبيرات القرآنية بنصيب أكبر مـــن غيرهـــا إذ هي موضوع البحث"[1]. ويقول أحمد بدوي :"لـــم يتخذ عبدالقاهر القرآن الأساس الأوّل لبيان البلاغة والإعجاز"[2].

ورجوع عبدالقاهر إلى الشعر العربي في مجال دراسته لقضيّة الإعجاز كان نوعـــًا مـــن التعبير عن روعة ما يجده في النص القرآني، ونوعـــًا من إقامة الدليل على أنّ هذا الكـــلام ليس من جنس ما يتكلّم به الشعراء والكتاب قبل نزول القرآن الكريم وبعد نزوله على السواء.

كمـــا أنه أراد أن يبيّن أنّ كل ما في الشعر العربي من بلاغة تعبير، وروعة معنى، ودقة نظم في القرآن مثله، وكذلك فإن ما في القرآن من مجاز واستعارة وكناية وتشبيه، وتـــمثيل، وتقديم وتأخير ....الخ، في الشعر العربي مثله، ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم يقف وحده على هذه القمّة الشامخة من دون أن يستطيع الشعر العربي، على الرغم من بلاغته، أن يدنو إلى السفح من قمّة إعجازه.

فالسبيل إلى معرفة حقيقة الإعجاز عند عبدالقاهر هو استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها، حتى تتم معرفة الجيد من الرديء في كلامهم، ودرجات جودته، ثم أســـرار هذه الجودة، ومن ثمّ يتم استخلاص مقاييس عامة تنطبق على البيان العربي كله، ويمكن بـــها التماس السبل إلى إعجاز القرآن ومنها دقائق أسلوبه.

---

(١) مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص ٣٥.

(٢) بـــدوي، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، مصر، ط٢، (د.ت)، ص ٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويبدو أن عبدالقاهر ترك للقارئ تطبيق فكرته على القرآن، فهو لم يتحدث حديثاً مباشرًا عن وجوه الإعجاز، ولم يلق القرآن لقاءً مواجهاً يكشف عن أسرار إعجازه، ولكنه وضع بين يديه المفتاح، وأعطاه المقياس الذي يستطيع بواسطته أن يزن الكلام، ليصل إلى معرفة أسرار إعجاز القرآن الكريم[1].

وما انتهى إليه عبدالقاهر من أن النظم لا اللفظ ولا المعنى هو مجال التفاضل بين كلام وآخر هو القول الفصل في الإعجاز، فالصورة البيانية هي التي ينبغي أن تكون في معرض النظر عند الموازنة بين أساليب القول والبيان، وبالمقدار الذي تكون فيه الصورة من صحّة المعنى، ودقته، وجمال اللفظ، واتساقه، يكون حظها من المزية والفضل بين الكلام.

وخلاصة القول أنّ عبدالقاهر بهذا الجهد الجليل قد قدّم إلى بيان الذكر الحكيم وإعجازه خاصة، وإلى البلاغة والنقد العربي عامة، خدمة عظيمة بدراسة أسلوب القرآن الكريم، تلك الدراسة المبنيّة على حسن الفهم، وقوّة الإدراك، والتي كانت مفتاحاً لكثير من الدراسات البلاغيّة والنقديّة بعده.

المبحث الثاني :الدلالة والإعجاز :

تمثّل المعاني الثواني عند عبدالقاهر المعاني البلاغية التي تدرك وتفهم من خلال الدلالات اللغوية، أو من خلال المعاني الأول، إذ يقول : "فالمعاني المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحلي، وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني هي التي تكسي تلك المعارض، وتزين بذلك الوشي والحلي"[2]. وتعني المعارض عند عبدالقاهر : المعاني اللغوية أو المعاني الأول وهي بمثابة الثياب، أما

(١) بدوي، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة، ص ٥٣.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٠٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المعاني الثواني فهي بمثابة الزينة لتلك الثياب أو بمثابة الجانب الجمالي لها، فمثلاً إذا قلت : "رأيت الأسد وأنت لا تريد الرجل الشجاع فليس في اللفظ معنى الوشي والحلي؛ لأن اللفظ استعمل في معناه الحقيقي، أما إذا أردت الرجل الشجاع فإنّ لفظ الأسد فيه معنى الوشي، والحلي، لأنه دال على معنى ثانٍ، وهو الرجل الشجاع والذي يمثل المعاني الثواني والاستعارة معاً[1].

وهكذا يكون الأمر في الكناية، فإذا قلت : فلان كثير رماد القدر وأنت لا تقصد أنه مضياف، فليس للفظ وشي وحلي؛ لأنه استعمل على الحقيقة، أما إذا أردت المعنى الثاني الدال على الكناية، فإن معنى الوشي والحلي فيه، وكذلك المعاني الثواني الدالة على الكناية[2].

وبذلك فإن ألفاظ الكناية والاستعارة والتمثيل تمثل المعاني الثواني عند عبدالقاهر، وما ينطبق على الكناية في مفهوم المعاني الثواني ينطبق على الاستعارة والكناية، وقد عبّر عبدالقاهر عن هذه المعاني مرّة بالمعاني الثواني ومرة بالدلالة الثانية للفظ ومرّة ثالثة بمعنى المعنى.

أما مفهوم الدلالة الثانية في اللّفظ فقد قسّم الكلام فيها إلى ضربين : ضرب يصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وهذا النوع يكون على الحقيقة مثل أن تخبر عن خروج زيد، فتقول :خرج زيد.

وضرب لا يصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكنه "يدلك على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تخبر بذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض"[3].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٠٥.

(٢) انظر : المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما معنى المعنى فيقول فيه "فهاهنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسّرت لك"[1].

ثم يُفسّر عبدالقاهر تلك المعاني ويشرحها فيقول : "وإذ قد عرفت ذلك، فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعاني، وحلية عليها فاعلم أنّهم يصفون كلاماً قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه، من طريق معنى المعنى، فكنّى وعرّض، ومثّل واستعار، ثم أحسن في ذلك كلّه وأصاب، ووضع كل شيء منه موضعه وأصاب به شاكلته، وعمد فيها كنّى به وشبّه ومثّل، لما حسن مأخذه ودقّ مسلكه ولطفت إشارته، وأنّ المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به، ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني، كمعنى قوله : (فإنّي جبان الكلب، مهزول الفصيل)[2]، الذي هو دليل على أنه مضياف"[3].

ويؤكّد عبدالقاهر أن البلاغة ليست في الألفاظ ولا في معانيها اللغوية بل في المعاني الثواني، وأن من شروط البلاغة أن يكون المعنى الأوّل دليلاً على المعنى الثاني حيث يقول : "ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ؛ ثم لا تعترضك شبهة في أنها ليست له ولكن لمعناه قولهم : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه إلى قلبك، فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة"[4].

---

(١) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٠٣.

(٢) صدر بيت، عجزه وماكَ فيّ من عيبٍ فإنّي.

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٦٣، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجملة الأمر أنه إنما يتصور أن يكون المعنى أسرع فهمًا منه لمعنى آخر، إذا كان ذلك مما يدرك بالفكر، وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سمعه للكلام، وذلك محال في دلالة الألفاظ اللغوية؛ لأن طريق معرفتها التوقيف والتقدم بالتعريف.

و قصر عبدالقاهر المعاني الثواني في دلائله على الاستعارة والكناية والتمثيل، ولقد ربطها في أكثر من موضع في الدلائل على اعتبار أنّها جميعًا تعبّر عن مدلول بلاغي واحد، وسيتضح مفهوم هذه المعاني عند الجرجاني في ما يأتي :

أ-الكناية عند عبدالقاهر :

الكناية في اللغة :"أن تتكلم بشيء وتريد غيره وهي مصدر "كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح"(١).

وفي الاصطلاح : "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معناه"(٢).

فالمراد بالكناية "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني. فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة. ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك : قولهم "هو طويل النجاد" يريدون طويل القامة، وفي المرأة :"نؤوم الضحى" والمراد : أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في –هذا كله- معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توّصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود"(٣).

وقد عدّ الجرجاني الكناية من أهم الفنون البلاغية، وقد وصفها بأنّها "فن من القول دقيق المسلك لطيف المأخذ"(٤).

---

(١) ابن منظور : اللسان، مادة (كنى).

(٢) التفتازاني، سعد الدين سعود بن عمر (ت ٧٩١هـ) : شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط٤، (د.ت)، ٢٣٧/٤.

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٦٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ميّزاتها أنها تقدّم المعنى البلاغي مع الدليل، ويبرز المعقول في صورة المحسوس، ويعبّر بها عما لا يليق التعبير به، وتزيد الألفاظ جمالاً وتكسب المعاني سحرًا ورونقًا بخلاف الاستعارة، فإنها تقوم على المشابهة وعلى حذف أحد طرفي التشبيه.

وقد أجمع النقاد في نظر الجرجاني على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح. "فإذا قلت : بلغني أنك تقدم رجْلاً وتؤخر أخرى، كان أوقع من صريحه الذي هو قولك : "بلغني أنك تتردد في أمرك، وإذا قلت هو طويل النجاد، وهوجمّ الرماد، كان أبهى لمعناك وأنبل من أن تدع الكناية، وتصرّح بالذي تريد"(١).

ويقول الجرجاني :"ليس المعنى إذا قلت إن الكناية أبلغ من التصريح، أنّك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى : أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشدّ، فليست المزيّة في قولهم : "جم الرماد" أنه دلّ على قرىً أكثر، بل أنّك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابًا هو أشد وادّعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق"(٢).

ويذكر الجرجاني أنّ الكناية لإثبات المعنى في موضع آخر بقوله :"ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ : ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم : هو كثير رماد القدر، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك، فقلت إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد أنه تنصب له القدور الكثيرة، ويطبخ فيها القرى

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الاستعارة المفيدة عنده فقد حصرها في الاستعارتين التصريحية والمكنيّة من غير أن يـنص على مصطلحيهما، ولكنه ذكر أنّها على ضربين : الأوّل مثل : رأيت أسدًا والثاني كقول لبيد[1] :

وغَـداةُ رِيـحٍ قَـد كَـشَفْتُ وَقِرَّةٍ إِذْ أَصْـبَحَتْ بِـيَدِ الـشمالِ زِمامُهـا

ثمّ فسّر ذلك في "دلائل الإعجاز" بقوله : أنك إذا قلت : رأيتُ أسدًا فقد ادعيت في إنسان أنّه أسد، وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسدًا. وإذا قلت، إذ أَصْبَحَتْ بيد الشمالِ زِمَامُها، فقد ادعيت أن للشمال يدًا ،ومعلوم أنّه لا يكون للريح يد[2].

ثمّ بينّ الجرجاني أنّ استعمال الأسماء في غير ما وضعت لـها لا تفيد من الناحية البلاغـية كاسـتعمال الـشفة مثلاً في الفرس؛ لأنـها موضوعة في الأصل للإنسان وأرجعها إلى التشبيه؛ لأنـها في متناول الخاصة والعامة[3].

كـان مفهـوم الاسـتعارة في بداية ظهوره في الكتابات العربية المختلفة المتصلة بالبلاغة خلال القرون الأولى من الإسلام، مختلفـًا اختلافـًا جذريـًا عما تطوّر إليه هـذا المعنى فيما بعد، فقد كان المنظرون الأوائل في كتاباتـهم عن الاستعارة لا يرون فـيها إلا ما تمثله الاستعارة القائمة على التمثيل وهي الاستعارة المكنية. ومن ثمّ كانت تعريفات البلاغيين الأوائل وتعليقاتـهم، وشروحهم المطوّلة تنصّب على هذا النوع من الاسـتعارة المكنية، كما أنّ تعريفات المنظرين الأوائل وتعليقاتـهم تشير إلى أنّ فكرة الـنقل، أي نقل الشيء إلى الشيء لم تكن مستعملة لديهم، وأنّ فكرتـهم هذه عن الاسـتعارة قائمة على التشبيه بل كانت قائمة على التمثيل، من هنا وجد هذا الخلط واللـبس بـين مفهـوم التمثيل والاستعارة في الكتابات الأولى للبلاغيين حتى عصر

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والضيافة؛ وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة. وهكذا السبيل في كل ما كان كناية"[1].

ب-الاستعارة :

الاستعارة في اللغة : هي من العارية، وهي نقل الشيء من شخص إلى آخر لكي تصبح من خصائص المُعار إليه[2].

في الاصطلاح : "لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة"[3].

وعرّف الجرجاني الاستعارة قائلاً: "الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به، فتعيره المشبه وتجريه عليه تريد أن تقول : رأيت رجلاً هو الأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول : رأيت أسداً"[4].

وقد جعلها الجرجاني في أسرار البلاغة في قسمين : أحدهما الاستعارة المفيدة، والأخرى الاستعارة غير المفيدة.

أما الاستعارة غير المفيدة فهي خاصّة بالأسماء "كوضعهم للعضو الواحد أسام كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع الشقة للإنسان، والمشفر للبعير والجحفلة للفرس"[5].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣١٦.

(٢) ابن منظور : اللسان، مادة (عير).

(٣) عرفة، عبدالعزيز : من بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٤م، ص ١٠٠.

(٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٦٧.

(٥) الجرجاني : أسرار البلاغة، تحقيق : محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط١، ١٩٦٧م، ص ٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عبدالقاهر الجرجاني، الذي استطاع بقدرته الفكرية وعلمه الوافر أن يميّز بين نوعين من الاستعارة(١).

وقد اتّضح ذلك في الدلائل بقول الجرجاني : "اعلم أنّ من شأن هذه الأجناس : أن تجـــري فيها الفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد. أفلا ترى في الاستعارة العامي المبـــتذل، كقولنا : رأيت أسدًا، ووردت بحرًا، ولقيت بدرًا، والخاصي النادر، الذي لا تجـــده إلاّ في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلاّ أفراد الرجال كقوله "وسالت بأعناق المطي الأباطح"(٢) أراد أنـــها سارت سيرًا حثيثـــًا في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلامة، كأنّها كانت سيولاً وقعت في تلك الأباطح فجرت بـــها" (٣).

إن تـــصوّر الجرجاني للاستعارة يتسم بالدقة والوضوح فقد بيّن قيمتها وفعاليتها وهـــي أســـاس الصورة الفنيّة عنده، حيث يقول في تعريفها : "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر، أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية" (٤).

ويُفهم من كلام الجرجاني أن الاستعارة عبارة عن نقل الكلمة من معناها الأصلي إلى معـــنى آخر على سبيل العارية. "أنك لا تقول : رأيت أسدًا. إلا وغرضك أن تثبت للرجل أنّه مساو للأسد في شجاعته وجرأته، وشدّة بطشه وإقدامه، وفي أن الذعر لا يخامره والخوف لا يعرض له، ثم تعلم أن السامع إذا عقل هذا المعنى لم يعقله من لفظ أسد ولكنه يعقله من معناه، وهو يعلم أنه لا معنى لجعله أسدًا مع العلم بأنّه رجل، إلا

(١) انظر : فلفهارت، هاينركس: آراء حول الاستعارة، ومعنى المصطلح "استعارة في الكتابات المبكرة في النقد العربي، ترجمة سعاد المانع، مجلة فصول، المجلد ١٠، ع٣، ١٩٩٢م، ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) صدر بيت لكثيّر عزّة، عجزه   أخَذنَا بأطرافِ الحديثِ بيننـــا

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٧١.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أنك أردت أنه بلغ من شدة مشابهته للأسد ومساواته إياه مبلغًا يتوهم معه أنه أسد بالحقيقة"(١).

ويبـــيّن الجرجاني ما وقع به الناس من خطأ في سوء فهم معنى الاستعارة. "واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت : رأيت أسدًا : وأنت تريد التشبيه، كنت نقلت لفظ أسد عما وضع له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه، حتى كأن ليس الاستعارة إلا أن تعمد إلى اسم الشيء فتجعله اسمًا لشبيهه، وحتى كأن لا فصل بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماء والنبتُ غيثـــــًا"(٢).

ويتابع الجرجاني الحديث لتوضيح معنى الاستعارة. "ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء. إذ لو كانت نقل اسم، وكان قولنا : "رأيت أسدًا" بمعنى رأيت شبيهًا بالأسد. ولم يكن ادّعاء أنه أسد بالحقيقة –لكان محالاً أن يُقال : ليس هو بإنسان، ولكنه أسد، أو هو أسد في صورة إنسان، كما أنه محال أن يقال : ليس هو بإنسان، ولكنه شبيه بأسد. أو يقال هو شبيه بأسد في صورة إنسان"(٣).

فـــلا يستعار اللفظ مجرّدًا عن المعنى، ولكن يستعار المعنى، ثم يكون اللفظ تبعـــًا للمعنى، ومن أجل ذلك يقول الجرجاني : "رأيت العقلاء، كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبدًا أبلغ من الحقيقة"(٤).

ممـــا ســـبق فإن الجرجاني يريد التأكيد بأن الكلام يصل إلى السامع والقارئ عن طريق المعنى وليس اللفظ، وهو بذلك ينفي ثنائية اللفظ والمعنى.

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣١٦-٣١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣١٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويذكـــر في دلائله أنه قد كثر في كلام الناس استعمال لفظ النقل في الاستعارة، فمـــن ذلك قولهم : "إنّ الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل"(١).

ويوضّـــح خطأهم بقوله : "واعلم أنّ في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه البتة". ذلك مثل قول لبيد(٢):

وغَـــداةُ ريـــحٍ قـــد وَزَعـــتُ وقِـــرّةٍ   إذ أَصْـــبَحَت بِـــيَدِ الـــشمالِ زِمَامُهـــا

لا خلاف في أن اليد استعارة، ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه، وإنـــمـــا الـــمعنى على أنّه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الإنسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد، فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان بالـــيد اســـتعار لـــهـــا الـــيد. وكما لا يمكنك تقدير النقل في لفظ اليد، كذلك لا يـــمكـــنك أن تجعـــل الاستعارة فيه من صفة اللفظ، ألا ترى أنه محال أن تقول : إنه اســـتعار لفظ اليد للشمال؟ وكذلك سبيل نظائره مما تجدهم قد أثبتوا فيه للشيء عضوًا مـــن أعـــضاء الإنسان من أجل إثباتـــهم له الـــمعنى الذي يكون في ذلك العضو من الإنسان كبيت الحماسة :

إِذَا هَـــزّه في عظْـــمِ قَـــرْنٍ تـــهلّلَت   نـــواجذُ أفـــواهِ المـــنايا الـــضّواحِكُ

فإنـــه لـــما جعل المنايا تضحك جعل لـــها الأفواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها. وكبيت المتنبي :

خمِـــيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ والغَرْبِ زَحْفُهُ   وفي أُذُنِ الجَـــوْزَاءِ مِـــــنْه زَمـــازِمُ

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لـمـا جعـل الجوزاء تسمع، على عادتـهم في جعل النجوم تعقل، ووصفهم لـهـا بمـا يوصـف بـها الأناسي، أثبت لـها الأذن التي بـها يكون السمع من الأناسي "[١].

"فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم في بيت الحماسة أنه استعار لفظ النواجذ، ولفظ الأفواه؛ لأن ذلك يوجب المحال، وهو أن يكون في المنايا شيء قد شبهه بالنواجذ وشيء قد شبهه بالأفواه، فليس إلا أن تقول : إنه لما ادعى أن المنايا تسر وتستبشر، إذا هو هز السيف، وجعلها لسرورها بذلك تضحك، أراد أن يبالغ في الأمر، فجعلها في صورة من يضحك، حتى تبدو نواجذه من شدة السرور، وكذلك لا تستطيع أن تزعم أن المتنبي قد استعار لفظ الأذن؛ لأنه يوجب أن يكون في الجوزاء شيء، قد أراد تشبيهه بالأذن، وذلك من شنيع المحال"[٢].

ممـا سبق يتضّح أن الاستعارة هي : ادعاء معنى الاسم لشيء لا نقل الشيء عن الشيء.

ومن بلاغة الاستعارة : قول الجرجاني[٣] : "فأنت الآن إذا نظرت إلى قوله :

فَأسْـبَلَتْ لؤلُـؤًا مِـنْ نَـرْجِسٍ، وسَـقَتْ   وردًا، وعَـضَّت علـى العُـنّاب بالبَـرَدِ[٤]

فـرأيته قد أفادك أنّ الدمع كان لا يحرم من شبه اللؤلؤ، والعين من شبه النرجس شـيئـًا، فلا تحسبن أن سبب الحسن الذي تراه، والأريحية التي تجدها عنده أنه أفادك ذلـك فحسب، وذاك : أنك تستطيع أن تجيء به صريحـًا فتقول : فأسبلت دمعـًا كأنـه اللؤلـؤ بعيـنه، من عين كأنـها النرجس حقيقة، ثم لا ترى من ذلك الحسن شـيئـًا، ولكـن اعلم أن سبب أن راقك وأدخل الأريحية عليك، أنه أفادك في إثبات

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣١٩.
(٢) المصدر السابق، ص٣٢٠.
(٣) البيت لـ : الوأواء الدمشقي.
(٤) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٢٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شدة الشبه مزيَةَ وأوجدك فيه خاصة. قد غرز في طبع الإنسان أن يرتاح لـــها،ويجد في نفسه هزّةً عندها .وهكذا حكم نظائره كقول أبي نوّاس :

تَبْكِـــي فَـــتَذْرِي الـــدُّرَّ عـــن نَرْجِسٍ   وتَلْطُـــــــمُ الـــــوَرْدَ بِعُـــــنّاب

وقول المتنبي :

بَـــدَتْ قَمَـــرًا، ومَالـــت خـــوطَ بانٍ   وفَاحَـــتْ عَنْبَـــرًا، ورَنَـــتْ غَـــزَالاً

فالجـــرجاني يريد إثبات ما للاستعارة من مكانة رفيعة، فكلما زاد التشبيه خفاء، ازدادت الاستعارة حسنـــاً، حتى إنك تراها أغرب وأجمل ما تكون.

ومن بدائع الاستعارة عند عبدالقاهر "أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي. مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة "الجسر" في قول أبي تمام:

لا يَطْمَـــعُ المـــرءُ أنْ يَجْـــتابَ لجـــتَهُ   بالقَـــوْلِ مـــا لـــمْ يكُـــن جِـــسْرًا لـــه العمـــلُ

وقولـــــــه :

بَـــصُرْتَ بالـــرَّاحَةِ العُظْمـــى فلـــم تَـــرَها   تُـــنالُ إلا علـــى جِـــسْرٍ مـــن الـــتَعَبِ

فترى لـها في الثاني حسنـــًا لا تراه في الأوّل. ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي :

قولـــي : نَعـــمْ، ونَعـــمْ إن قُلـــتِ واجـــبةٌ   قالـــتْ : عـــسى، وعـــسى جِـــسرٌ إلـــى نَعـــم

فترى لـها لطفًا وخلابة وحسنـــًا، ليس الفضل فيه قليل(١).

ج-التمثيـــــــــــــــل :

يعني مصطلح التمثيل عند عبدالقاهر: الاستعارة التمثيلية وهو مصطلح مستقل عن الاستعارة، ذلك أن الاستعارة تقوم على التشبيه، أما التمثيل فأساسه التشبيه التمثيلي، وهو مصطلح يشتمل على الاستعارة التمثيلية وعلى التشبيه التمثيلي معـــًا.

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٧٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقــد فرّق عبدالقاهر بين التشبيه والتمثيل إذ عدّ التشبيه "عاماً، والتمثيل أخص منه، فكل تــمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تــمثيلاً"(١).

أمــا الاســتعارة التمثيلــية عــند جمهور البلاغيين "فهي مجاز مركب فيما شبه بــمعناه؛ لأن اللفظ فيها هيئة منتزعة لــهيئة منتزعة"(٢).

ويُقال في تعريف الاستعارة التمثيلية أيضًا :"إنــها اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابــهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي"(٣).

وربمــا يعود السبب في هذا الاختلاف أنّ عبدالقاهر يرى : "أن التشبيه يكون من جهته أمرًا بيّنًا لا يحتاج في فهمه إلى تأويل، كتشبيه الشيء إذا استدار بالكرة، أو تشبيه اللون كتشبيه الخد بالورد.

أما التشبيه التمثيلي فلا يتم إلا بتأويل وإعمال فكر حيث يدرك عن طريق العقل، ويحتاج إلى رؤية كتشبيه الحجة بالشمس واللفظ كالعسل في الحلاوة؛ لأن الصفة هنا لا تشارك المشبه به، وإنما ينتزعها العقل من الشيء للشيء كانتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل أو يكون الانتزاع من هيئة متعددة عن طريق العقل(٤) كقوله تعالى :﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾(٥).

فالتشبيه التمثيلي عند عبدالقاهر عقلي سواء أكان مفردًا أم مركّبــا، والاستعارة تقوم على التشبيه، أما التمثيل فيقوم على التشبيه التمثيلي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٨٤.

(٢) التفتازاني : شروح التلخيص، ٤/١٤١.

(٣) عــرفة، عبدالعزيــز عبدالمعطــي : قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ٢١٥.

(٤) انظر : الجرجاني : أسرار البلاغة، ص ٨١-٨٢.

(٥) سورة الجمعة، آية ٥.

ومهمـــا يكن من الاختلاف في مفهوم التشبيه التمثيلي فإن عبدالقاهر قد شرحه وبـــيّن أهميته وتأثيره في النفوس، فقال : :واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أنّ التمثيل إذا جـــاء في أعقاب المعاني كساها أبـــهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارهـــا ودعـــا القلوب إليها، واستثار لـــها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفـــًا، ومحبة وشـــغفـــًا، فإن كان مدحـــًا كان أبـــهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم ... وإن كان ذمـــًا كان مسه أوجع وميسمه ألذع... وإن كان اعتذارًا كان إلى القلوب أقرب وإن كان وعظـــًا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه والزجر"[1].

ويقـــول عبدالقاهـــر في محاسن التشبيه التمثيلي :"ومن المركوز في الطباع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه كان نيله أحلى وبالمزيّة كان أولى، فكان موقعه في النفس أجلى وألطف... ولذلك ضرب به المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ"[2].

وقدألحّ الجرجاني على ما يؤديه التمثيل من جمال الصورة البلاغية، إذ يقول :"إذا أوقع على الصواب، وعلى ما ينبغي، أوجب الفضل والمزيّة، فإذا قلت : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى كان له موقع لا يكون إذا قلت : أراك تتردد في الذي دعوتك إليه كمن يقول : أخرج ولا أخرج فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى"[3].

وقـــد بـــيّن الجرجاني أن التمثيل المقصود هنا هو المجاز، وذلك للفرق بينه وبين التشبيه التمثيلي، فيقول :"وأما التمثيل الذي يكون مجازًا ... فمثال قولك للرجل يتردّد في الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فالأصل في هذا أراك في ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام وجُعل كأنه يقدّم الرجل

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ويؤخرها على الحقيقة، كما في قولك رأيت أسدًا، رأيت رجلاً كالأسد، ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة"[1].

وفي حـــديث عبدالقاهر عن ترجيح الكناية والاستعارة عن الحقيقة يقول :"وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء، فإذا قلت أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد، كان أبلغ لا محالة من أن تجري على الظاهر"[2].

ويقـــول :"وإذا قد عرفت أن طريق العلم للمعنى في الاستعارة والكناية معًا المعقول، فاعلم أن حكم التمثيل في ذلك حكمهما، بل الأمر في التمثيل أظهر"[3].

لـــذا يعد التمثيل أحد الفنون البيانية ومن أبدع طرق التصوير وهو من مقتضيات النظم عند الجرجاني، ولقد ربط عبدالقاهر بين الكناية والاستعارة والتمثيل، فإذا تحدث عـــن واحدة منها، تحدّث عنها جميعـــًا، مـــما يدل على أنـــها تـــمثل صورة بلاغية واحـــدة لـــهـــا معنيان : معنى ظاهري له دلالة لغوية، ومعنى باطني له دلالة بلاغية، ويتمثّل في المعاني الثواني.

وأخـــيرًا تُعد دراسة عبدالقاهر الجرجاني للصور البيانية أفضل ما تركه لنا لـــما فـــيها مـــن فائدة عظيمة كما في تلك الصور البيانية من روعة وقيمة في توليد المعاني الجديـــدة والإضـــافية، وما تضفيه للكلام من محاسن فينشأ منها النظم فتشكّل العلاقة الأسلوبية بين الألفاظ.

فالكـــناية والاستعارة والتمثيل كلها من الفنون البيانية، وهي قائمة عند الجرجاني أساســـًا علـــى توظيف معنى المعنى (المعنى الدلالي) لما تضفيه على الكلام من رونق

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ٣٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٨، ص ٣٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ، ص ٣٢١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجمال جرّاء عملية النقل والتحويل الذي تحدثه على اللفظ حيث تنقل اللفظ من معناه الأول إلى معناه الثاني(١).

والجـــرجاني عـــندما يتحدث عن الكناية والاستعارة والتمثيل، يوجّه الأنظار إلى كـــونـــها داخلـــة في إطار نظريّة النظم، وبالتالي فهي داخلة في دلائل إعجاز القرآن الكريم. فيقول في سياق ردّه على من يعتقد بوجوب إخراج الاستعارة وضروب المجاز من الإعجاز "ليس الأمر كما ظننت، بل يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز؛ وذلك لأنّ هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم، وعنها يحدث وبها يكون؛ لأنّه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد ما لم يتوخ في ما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصوّر أن يكون ها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره"(٢).

ويسوق الجرجاني أمثلة عديدة يؤكد من خلالـــها علاقة تلك التعبيرات البلاغية بنظـــرية النظم والإعجاز، وسأذكر هذه الأمثلة إن شاء الله في الفصل القادم من خلال حديثي عن دور الجرجاني في إخراج البلاغة من الإطار التقليدي الذي كانت فيه ومن الوضع المتردّي الذي لازمها فترات طويلة من الزمن.

---

(١) انظر : مطلوب، أحمد عبدالقاهر الجرجاني : بلاغته ونقده، ص ١٢٤.

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٢٩٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابع

النظم والبلاغة

المبحث الأول: إخراج البلاغة من الإطار التقليدي.
المبحث الثاني: جمال الكلمة في التركيب.
المبحث الثالث: جمال التراكيب في السياقات المختلفة.
المبحث الرابع: جمال التراكيب في النص كله.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأول: إخراج البلاغة من الإطار التقليدي :

وصل وضع البلاغة عند معاصري عبد القاهر وسابقيه وضعًا متردّيًا، بسبب ما ترسّخ في عقول الناس من أفكار ومعتقدات فاسدة في فهم الكلام، ونسبتهم الفصاحة والبلاغة إلى الألفاظ، وغفلتهم عن طريق الموصل إلى كشف جمال وأسرار البلاغة، فكانوا يفسرون الكلام على ظاهره، ولا يفهمون من البلاغة إلا ما تناقلوه فيما بينهم من أنّ الألفاظ تدل على الاستعارة والكناية والمجاز، وأنّ حسن الكلام وحلاوته ترجع إلى ما فيه من سجع وتلاؤم بالحروف، فتكلّفوا السجع في كلامهم.

يقول الجرجاني :"فإنّ جهلهم بذلك من حالها هو الذي أغواهم واستهواهم إلى التعلق بالمحالات، وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وصنفوا لأنفسهم أساسًا وبنوا على قاعدة،.... ولما أقروا هذا في أنفسهم حملوا كلام العلماء في كل ما نسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره"[1]، فعندما جاء عبد القاهر كان اهتمامه منصبًا على أن يعيد نظرية النظم إلى وضعها العربي على وجه التحديد القرآني، وذلك بإعادتها إلى ما كانت عليه من أصالة فجاءت نظريّة عربيّة خالصة.

والبلاغة عند عبد القاهر هي الركن المتين، الذي ترتكز عليه نظرية النظم، لذلك بذل الجرجاني قصارى جهده في إخراج البلاغة من الإطار التقليدي الذي وضعت فيه.

وللنظم عند الجرجاني أساس كلامي مستمد من عقائد الأشاعرة، وأساس فلسفي مستمد من بيئة الفلاسفة، وبالتحديد الفلسفة الأولى لأرسطو، وبمعنى آخر فإن نظرية النظم مستمدة من الأشاعرة الذين يفصلون بين الدّالّ وهو اللفظ، والمدلول وهو

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣٤٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الـــمعنى، ويسلّمون بأسبقية الـــمعاني القائمة في نفس المتكلّم على الألفاظ الدالة عليها؛ إذ كانوا يعللون إعجاز القرآن بنظمه لا في لفظه ولا في معناه(١).

وتعتمد نظرية النظم على "المبدأ الأرسطي الذي يعيد اختلاف الأشياء وتباينها إلى علتها الصورية، أو الشكل الخاص الذي تتصوّر به المادة"(٢)، ولذلك قرن الجرجاني النظم بالصياغة ولخص نظريته بقوله :"وجملة الأمر أنه كما لا تكون الفضة أو الذهب خاتمًا أو سوارًا أو غيرهما من أصناف الحلي بأنفسهما، ولكن بما يحدث فيها من الصورة، كذلك لا تكون الكلم مفردة التي هي أسماء، وأفعال، وحروف كلامًا وشعرًا، من غير أن يحدث فيها النظم، الذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه"(٣).

وبذلك يردّ الجرجاني قيمة البلاغة وفصاحة الكلام وجودته إلى الصياغة، حيث لا قيمة للمادة إلا بالطريقة التي تصاغ فيها معتمدة في ذلك على اللفظ والمعنى، إذ لا قيمة للفظ دون معناه، فالسر في بلاغة التعبير يعود إلى ما بين المعاني المدلول عليها بالألفاظ من تآخ وترابـــط.

وعمل الجرجاني على تصحيح المفهوم المتوارث للعبارة الأدبية، وتفسير الصور البيانية، وراح يحضّ الباحثين على أن يعيدوا قراءة التشكيل النحوي للعبارة الأدبية في موضوع فكرة النظم، ففكرة النظم عنده هي خلاصة آرائه اللغوية والبلاغية، وأساس نظرته للغة والشعر والنحو، فاللغة عنده مجموعة من العلاقات المتفاعلة والفاعلة التي

(١) انظـــر : ســلطان، منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، (د.ت)، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) انظر : عصفور،جابر : الصورة الفنيّة ، ص ٣٥٠.

(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٣١٧.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

تحمل نسيجًا مترابطًا من المدركات، حيث يقوم النظم بإظهار ذلك وتوضيحه، كما يقوم على صياغة الجمل ودلالتها على الصورة التي هي فضل الكلام[1].

بذلك ردّ الجرجاني المزيّة إلى النظم من خلال تأليف الكلام وإثباته وفق العلاقات النحوية الدقيقة التي تميز الكلام وتكشف عن قوته، فالجرجاني لا يهتم بالمعنى الغُفل بل يهتم بالمعنى الذي يستقر في النفس عن طريق نظمه الخاص، في رسم صورة المعنى، لا المعنى مجرّدًا من الصورة، ودرس البلاغة في ضوء جديد يقوم على دعامة من النحو وأحكامه بتوخّي معانيه، واستخدام أدواته للوصول إلى مواطن الحسن والجمال في اللغة شعرية كانت أو غير شعرية.

ويسوق الجرجاني أمثلة عديدة تظهر مواطن الجمال في اللغة، وطبّق عليها نظريته فأخرج بذلك البلاغة من الإطار التقليدي، والوضع المتردي الذي كانت عليه. ولعلّ من أهم آثار نظرية النظم في الدراسات البلاغية، هو إخراجها من حيّز الكلام العام إلى حيّز التطبيق، فالجرجاني لم يعتمد نظرية تقوم في الفراغ، بل اعتمد هذه النظرية بأساسها النحوي، فأعطى أمثلة من القرآن الكريم والشعر العربي، يمكن تطبيقها على الكلام في أي مجال لمعرفة مدى توافقها مع معايير هذه النظرية، وسيتضّح ذلك من خلال ما سيأتي :

(١) انظر : دهمان، أحمد : الصورة البلاغية عند عبدالقاهر الجرجاني منهجًا وتطبيقًا، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ج٢/٢١٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني : جمال الكلمات في التراكيب :

ضرب، الجرجاني أمثلة كثيرة وضّح من خلالـــها جمال الكلمات في التراكيب وأذكر منها: قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾[1].

"ومن ذلك أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلاّ إليها، ولم يروا للمزيّة موجبًا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزيّة الجليلة وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة. ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لـــما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتى بالذي الفعلُ له في المعنى منصوبًا بعده،مبينًا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيدٌ نفسًا، وقرّ عمرو عينًا،.. وأشباه ذلك، مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه، وذلك أنا نعلم أن "اشتعل" للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما أن طاب للنفس "وقرّ" للعين، "وتصبب" للعرق وإن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كان لأن سُلِك فيه هذا المسلك، وتُوُخّي به هذا المذهب: أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحـــًا فتقول: اشتعل شيب الرأس، والشيب في الرأس، ثم تنظر: هل تجد ذلك الحسن، وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشّيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بان بالمزية في الوجه الآخر هذه البينونة؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أولم يبق منه إلا ما لا يعتد به. وهذا ما لا يكون إذا قيل:

---

(١) سورة مريم، آية ٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة، ووزان هذا: أنّك تقول: اشتعل البيت نارًا، فيكون المعنى : أنّ النار قد وقعت فيه وقوع الشمول وأنـــها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: اشتعلت النار في البيت، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه، وإصابتها جانبـــًا منه، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة[1]. ويتابع الجرجاني توضيح ما في الآية من نظم بقوله : "واعلم أن في الآية شيئـــًا آخر من جنس النظم، وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة. وهو أحد ما أوجب المزيّة، ولو قيل "واشتعل رأسي" فصرّح بالإضافة لذهب بعض الحسن"[2].

يقول الجرجاني أيضًا : "ونظير هذا في التنـزيل : قوله عزّ وجل : ﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾[3]، التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس. وقد حصل بذلك من معنى الشمول هاهنا مثل الذي حصل هناك. وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت بذلك من معنى الشمول صارت عيوناً كلها، وأنّ الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو جرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض. لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه: أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن منها"[4].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٩٢-٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٤.

(٣) سورة القمر، آية١٢.

(٤) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٩٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هكذا أثبت الجرجاني أن جمال الكلمة يظهر من خلال دخولـــها في تركيب معيّن، ويزداد التركيب جمالاً عند ملاحظته في سياق الكلام، فالكلمة تعثر على قيمتها البلاغية عند انخراطها في سياق الكلام، وذلك بتفاعلها مع ما يسبقها وما يلحقها من كلمات.

فالسر في البلاغة عند عبد القاهر وجودة الصياغة يعود إلى ما بين الكلمات من تآخ وترابط، فاللفظ يفقد فاعليته وروعته من حيث هو لفظ مفرد، ويكتسب تلك الفاعلية ضمن نظرة شاملة في سياق واحد.

ومن الاستعارة ما يظهر جمالـــها في التركيب:

يقول بعض الأعراب:

اللّـــــيْلُ دَاجٍ كَـــــنَفَا جِلْـــــبَابِهِ والبَـــــيْنُ مَحْجُـــــورٌ علــــى غُـــــرابِهِ

"ليس كل ما ترى من الملاحة؛ لأنْ جعل الليل جلبابـــًا،وحجر على الغراب، ولكن في أن وضع الكلام الوضع الذي ترى، فجعل الليل مبتدأ، وجعل (داجٍ) خبرًا لـــه وفعلاً لما بعده وهو الكنفان. وأضاف الجلباب إلى ضمير الليل، ولأنْ جعل كذلك البين مبتدأ وأجرى "محجورًا" خبرًا عنه. وأن أخرج اللفظ على مفعول، يبيّن ذلك أنّك لو قلت: وغراب البين محجور عليه، أو : قد حُجِرَ على غراب البين ،لم تجد له هذه الملاحة، وكذلك لو قلت : قد دجا كنفا جلباب الليل، لم يكن شيئـــًا"(١).

فالنظم إذًا طريق نستدل به على المعاني، وعلى إدراك معنى المعنى، أي المعاني الإضافية، والنظم ومعانيه إنما هي معاني النحو، فالناظم لا يفعل سوى توخي معاني النحو.

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٩٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فانضمام اللفظ إلى اللفظ يقصد منه عقد شبكة من العلاقات والصلات داخل السياق، وبتوخي معاني النحو، وبالتوحد بين اللفظ والمعنى يكون النظم الذي يجعل من الصورة الشعرية محصّلة لـــهذا التعليق والتأليف[١].

ومثال آخر :"وليست الغرابة في قوله : وسالت بأعناق المطي الأباطح"[٢]. وذَلك أنه لم يغرب لأن جعل المطي في سرعة سيرها ،وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا شَبَهٌ معروف ظاهر. ولكن الدقة واللطف في خصوصيّه أفادها بأن جعل "سال" فعلاً للأباطح، ثم عداه بالباء، ثم بأن أدخل الأعناق في البيت، فقال" بأعناق المطي" و لم يقل بالمطي، ولو قال :سالت المطي في الأباطح: لم يكن شيئـــًا"[٣].

المبحث الثالث: جمال التراكيب في السياقات المختلفة :

وضّح الجرجاني جمال التراكيب في السياقات المختلفة بأن قدّم أمثلة فقال : "فإنّك تقول : زيد كالأسد، أو مثل الأسد، أو شبيه بالأسد، فتجد ذلك كله تشبيهًا غفلاً ساذجًا، ثم تقول: كأن زيدًا الأسد. فيكون تشبيهًا أيضًا، إلاّ أنك ترى بينه وبين الأول بونًا بعيدًا؛ لأنك ترى له صورة خاصة، وتجدك قد فخمت المعنى، وزدَت فيه بأن أفدت بأنه من الشجاعة وشدّة البطش، وأنّ قلبه قلب لا يخامره الذعر، ولا يدخله الروعة، بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه. ثم تقول: لئن لقيته ليلقينك منه الأسد: فتجده قد أفاد هذه المبالغة لكن في صورة أحسن، وصفة أخص، وذلك أنك تجعله في "كأن" يتوهم أنه الأسد، وتجعله ها هنا يرى منه الأسد على القطع، فيخرج الأمر عن حد التوهم إلى حد اليقين. ثم إن نظرت إلى قوله:

أَأَنْ أُرْعِـــشَتْ كفّـــا أبيكَ وأَصْبَحَتْ ‌ ‌ ‌ يـــدَاكَ يَـــدَيْ لَـــيْثٍ، فإنَّـــك غالِـــبُهْ

---

(١) دهمان، أحمد : الصورة البلاغية عند عبدالقاهر، ج١، ص ٢٠٧.

(٢) عجز البيت لكثيّر عزّة،وصدره :نزعنا بِأطْراف الأحاديثِ بيْنَنا

(٣) الجرجاني: دلائل الإعجاز ،ص ٧٣

وجدته قد بدا لك في صورة آنق وأحسن، ثم إن نظرت إلى قول أرطاة بن سُهيَّة

إن تَلْقَنِي لا تَرى غَيْري بِنَاظِرةٍ تَنْسَ السِّلاحَ وتعرفْ جبْهَةَ الأَسَدِ

وجدته قد فضل الجميع، ورأيته قد أخرج في صورة غير تلك الصورة كلها"[1].

كَأنّ مثار النَقْع فوْقَ رُؤوسِنا وَأَسْيَا فَنَا ليلٌ تَهاوَى كواكبُه

يقول عبد القاهر: "انظر هل يتصور أن يكون بشار قد خطر معاني هذه الكلم بباله أفرادًا عارية من معاني النحو التي تراها فيها؟ وأن يكون قد وقع"كأنّ" في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء؟ وأن يكون فكر في (مثار النقع) من غير أن يكون قد أراد إضافة الأول إلى الثاني؟ وفكر في (فوق رؤوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى الرؤوس؟ وفي (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار)؟وفي الواومن دون أن يكون أرادالعطف بها؟وأن يكون كذلك فكر في الليل من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرًا لكأن ؟ وفي (تهاوى كواكبه) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرًا لـ(كان). وفي (تهاوي كواكبه) من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى)، فعلاً للكواكب؟ ثم يجعل الجملة صفة الليل، ليتم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم تخطر هذه الأشياء بباله إلا مرادًا فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها؟"[2].

يرى الجرجاني أنّ التفاوت في تركيب الكلمات وتكوين الصور، هو الطريق لإثبات الإعجاز، فإذا بلغ الأثر الأدبي درجه من التميّز لا يلحقه فيها أي أثر آخر صحّ أن يسمى معجزًا.

والنظم الذي يعنيه عبد القاهر كما ذكرت سابقًا هو توخي معاني النحو وأحكامه، فيما بين الكلم من علاقات وربط الألفاظ في السياق يكون وليد الفكر

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص٣١٢-٣١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

بحيث ينشأ معنى مقصود به بذاته دون سواه، وأرجح الجرجاني جمال الكلام وتمايزه عن بعضه بعضًا إلى نظرية النظم (وذلك بتوخي معاني النحو بين الكلام وذلك عن طريق إبراز صورة المعنى لا المعنى مجرّدًا من الصورة).

ولا يكفي الناظم أن يكون عالمًا بقوانين النحو ومعانيه، وإنما يجب أن يكون عالمًا بمواضعها ووجوهها والفروق بينها، فالفضل والمزيّة يعودان إلى حسن التخيير في دائرة حدود النحو، وإلى اهتداء الناظم إلى الأفضل، وينحاز الجرجاني إلى السياق الذي لا يعثر فيه اللفظ على قيمته البلاغية إلا بالانخراط في سلك وظيفته الفنيّة المتحصّلة من تفاعل الأطراف لصالح كليّة المعنى البلاغي.

المبحث الرابع: جمال التراكيب في النص كله:

يقول الجرجاني : "واعمد إلى قول البحتري :

بَلَوْنا ضَرائبَ مَنْ قَدْ نَرى ... فَمَا إنْ رأيْنَا لفَتْحٍ ضَرِيبَا

هُوَ المَرْءُ أبدَتْ له الحادثا ... تُ عزمًا وَشيكًا ورأيًا صَليبا

تَنَقّل في خُلُقَي سُؤدُدٍ ... سَماحًا مُرجّى وبَأسًا مهيبًا

فكالسَيْفِ إنْ جئتَهُ صارِخًا ... وكالبَحْر إنْ جئتَهُ مُستَثيبًا

فإذا رأيتهاقد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازًا من نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر. فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلاّ أنه قدّم وأخّر، وعرّف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخى على الجملة وجهًا من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه وأتى ما يوجب الفضيلة، أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله : "هو المرء أبدت له الحادثات" ثم قوله "تنقل في خلقي سؤدد" بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه. ثم قوله "فكالسيف" وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ؛ لأن المعنى: لا محالة فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله "كالبحر"، ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطًا جوابه فيه، ثم أن

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله "صارخًا" " هناك و"مستثيًا"،ههنا لا ترى حسنـًا تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت"(١).

مما سبق فلقد ظهرت مزيّة الكلام وحسن نظمه عند الانتهاء من قراءة الأبيات كاملة، وهذا دليل على ترابط التراكيب والصور في النص كلّه.

"واعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزيّة في نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينظم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحذق والأستاذية" وسعة الذرع، وشدّة المنّة، حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عدّة أبيات"(٢).

ولما كان الناس ليسوا على درجة واحدة من المعرفة والإحساس لإدراك مواطن الجمال في النصوص استبعد الجرجاني المتلقي الغافل، ورأى أن هذا الأمر لا يأتي إلا للمتلقي الحاذق الذي يمتلك الذوق والإحساس الروحاني، ما يمكّنه من إدراك المزية في النظم والتدرّج في أعماق المدلول وذلك "لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها، أمور خفية، ومعان روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علمًا بها، حتى يكون مهيأ لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسًا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزيّة على الجملة، وممن إذا تصفح الكلام وتدبّر الشعر فرق بين الموقع شيء منها وشيء"(٣).

ومن ذلك قول النابغة:

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣٩٥.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

نَفْـــسُ عِــصَامٍ سَــوَّدَتْ عِــصَاما وعلّمَـــــــتْه الكَـــــرّ والإقْـــــدَاما

"لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار، وأن له موقعًا في النفس وباعثـــًا للأريحية لا يكون إذا قيل: نفس عصام سودته، شيء مَنه البتة[1]"فلا بُدّ أن يكون لاستحسان الكلام وبيان جودته من جهة معلومة وعلّة معقولة، فتعيين المزيّة والفضل في نص ما ينبثق من أسرار النظم وتوخي معانيه".

استطاع عبد القاهر الجرجاني ردم الهوة الفاصلة بين النحو والبلاغة بجعلهما أساسًا واحدًا، وربط الدلالات النحوية من استعارة وكناية وتمثيل، وتقديم تأخير، وفصل ووصل، وحذف،...

لذلك كان الجرجاني يربط بين جودة التعبير وبين النظم، حيث كان يبحث في البلاغة كل هذه الفنون البلاغية وإرجاعها إلى النظم[2].

وخلاصة الأمر أن الجرجاني أخرج البلاغة من الإطار التقليدي الذي كانت فيه، وأزال ما علق فيها من جفاف وجعلها تنبض بالحياة، وأكّد كثير من الباحثين أن نظرية النظم تلتقي و أحدث النظريات اللغوية في العالم، فيرى محمد مندور أن "مذهب عبد القاهر الجرجاني أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه"[3].

ولقد قورنت نظرية النظم الجرجانية بنظرية القواعد التحويلية لتشومسكي وبالنظرية البنيوية فكان الجرجاني السبّاق لكل ما توصل إليه علماء القرن العشرين الميلادي من نظريات.

"ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة إذ واستطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعًا دقيقًا"[4].

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٤٠٣.

(٢) دهمان : الصورة البلاغية عند عبدالقاهر، ط٢، ص ٤٩.

(٣) مندور، محمد : النقد المنهجي عند العرب، ص ٣٣٤.

(٤) ضيف، شوقي : البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٩٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وخلاصة ما أراد عبدالقاهر الجرجاني توضيحه :

١- أنه لا فصل بين الكلام ومعناه، ولا بين الصورة والمحتوى.

٢- أن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة، ولا في مجرّد المعاني.

٣- أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم.

٤- الحكم على النظم هو النظر في المعنى منظومـــًا، والذوق هو الفيصل الأخير في الحكم.

٥- يتخطى عبدالقاهر بنظريّة النظم الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركّبة.

٦- مرجع الاستحسان والمزيّة عنده للذوق والعقل.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الخامس

تطبيق نظرية النظم في كشّاف الزمخشري

المبحث الأول : النظم والتركيب.
المبحث الثاني: الدلالة والإعجاز.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تسلّم الزمخشري إرث الجرجاني الضخم وما اشتمل عليه من آراء بلاغية شرح الجرجاني بـــها وجود إعجاز القرآن وعلّل بـــها سور الجمال الأدبي. فوجد الزمخشري في كل ذلك ما يمضي نزعته العقلية، وهو العالم المعتزلي، ووجد ما يرضي إحساسه بالجمال وتذوقه للصورة، وهو الأديب الذوّاقة، فانصرف إلي وضع تفسير للقرآن الكريم، يكشف به عمّا في آيات الكتاب المعجز من أسرار بلاغية ودقائق معنوية، وأتى بذلك بـــما لـــم يُسبق إليه(١).

جاء تفسير الكشاف في أربعة أجزاء، وبناه الزمخشري على علمي المعاني والبيان، وسار الزمخشري على منهج الجرجاني في تحليلاته العقلية الذوقيّة وتطبيقاته البلاغيّة حتى قيل: إن الزمخشري متمم لعمل الجرجاني في البلاغة، إذ كانت عند كل منهما بلاغة تطبيقية تحيا في النماذج البليغة، وتلتصق بالنصوص الأدبية، وأنّ كلاً منهما كان يحاول أن يأخذ بيدك ليفتح قلبك وعينيك على الجمال، ويثير فيك الرغبة في استشعاره وتذوقه تذوقًا تطمئن إليه النفس ويخضع ويرضى به العقل ويقنع(٢).

استلهم الزمخشري هذا العلم من العالم الكبير الجرجاني، وراح يُطبّق أسس نظرية النظم في كتبه وخاصته (الكشّاف)، وسأوضّح في هذا الفصل كيف طبّق الزمخشري هذه النظرية، بتوضيح أمثلة من الكشّاف بما يختّص بالجوانب التي ذكرتـــها سابقًا في نظرية النظم. وقبل البدء بعرض الشواهد لا بُدّ من التنويه إلى نقطه: مهمّة وهي أنّ عبدالقاهر الجرجاني توفي (سنة ٤٧١هـــ)، وولد الزمخشري سنة (٤٦٧هـــ)، أي قبل وفاة الجرجاني بنحو أربع سنوات، فعاش الزمخشري عصرًا آخر، وظهرت في عصره تطورات في الدراسات والأساليب، لم يشهدها الجرجاني، فلا بُدّ أن الزمخشري استفاد منها ووظّفها في تطبيقه لنظريّة النظم في كشّافه و المتقدمة، وهذا لايعني أنّ لصاحب

---

(١) المبارك، مازن : الموجز في تاريخ البلاغة، ص ١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٦-١٠٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكشّاف مذهبًا من هذا اختصّ به أو خالف به الجرجاني ولكن أستطيع القول إنه توسّع في تفسيره عمّا ذهب إليه الجرجاني.

المبحث الأول: النظم والتركيب :

أ-العلاقة بين الكلمة والتركيب :

المعنى عند الزمخشري هو المقصد الرئيس، فلا يكاد يحفل باللفظ إلاّ قليلاً، فنراه حين يبدأ بتفسير السورة يحللها إلى ألفاظها، وبإزاء كل لفظ يضع المعنى أو المعاني التي يرجحها، ومن ثم يذكر معنى السياق كاملاً، وهو لا يفسر اللفظ على ظاهره، ولا يشرحه منفردًا، منعزلاً، عن التركيب الذي وضع فيه، وهو بذلك يسير على نهج الجرجاني في نظرته إلى اللفظ والمعنى، وأن المعنى هو الأصل وما الألفاظ إلاّ خدم للمعاني أو طريق للوصول إليها.

واستشهد الزمخشري في كشّافه بشواهد الشعر وأعطاها اهتمامًا وقيمة كبيرة كما فعل الجرجاني، فكان الزمخشري يستشهد بتفسير الآية القرآنية أو بيان مواطن البلاغة بالأبيات الشعرية.

ونرى أن الزمخشري قد يشغل نفسه في صفحات عديدة حاصرًا استعمال (لفظ) واحد عن العرب في لغات قائليها طلبًا لتغاير المعاني، وتجاوز قضيّة معنى اللفظ إلى معنى السياق. ونظر إلى الكلام على أنه توليف الكلمات بعضها مع بعض بحيث تكون كلامًا وسياقات ونصوص.

ومن الأمثلة التي طبق الزمخشري عليها نظرية النظم وعلاقته بالكلمة والتركيب: عندما شرح الآية :﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا﴾[1]، يقول الزمخشري : "**كيف جعلت الرحمة قريبة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء ؟ قلت : معناه أو**

(١) سورة الأحزاب، آية ١٧.

يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الله الكلام وأجرى مجرى قوله متقلدًا سيفًا ورمحًا، أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع" (١).

ويستشهد على الآية ببيت من الشعر (٢) :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ في الوغَى مُتَقَلِّداً سَيْفًا ورُمْحاً

أراد أن يقابل (أراد بكم سوءًا) بـ (متقلدًا سيفًا)، (وأراد بكم رحمة) تقابل رمحًا، فكان يريد التفريق بين السوء والرحمة في المعطوف عليه وذلك بتقدير المعنى، بقوله أراد بكم سوءًا أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، ومتقلدًا سيفًا وحاملاً رمحًا (٣).

وذكر مثالاً آخر في شرح الآيات :﴿ والصافات صفًا، فالزاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا﴾(٤). واستشهد بشرح الآيات بالبيت (٥) :

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارث الصابحِ فالغانمِ الآيبِ

والمسألة تتعلّق بدلالة الفاء في التراكيب الجملية السابقة، يرى الزمخشري هنا أنها إما أن تدل على ترتيب معانيها (يقصد الصافّات) في الوجود"، كما في البيت كأن المعنى الذي "صبح فغنم فآب"، أو على الترتيب في التفاوت أو الترتيب في الموضوعات، ثم يترك المسألة مفتوحة لفهم القارئ ،فإن افترضت توحد الموصوف فدلالة الفاء ترتيب الصفات في تفاضلها، وإن افترضت تثلث الموصوفات فالصفات مختلفة(٦).

---

(١) الزمخشري : الكشّاف، ٢٥٥/٣.

(٢) المصدر السابق، ٢٥٥/٣.

(٣) المصدر نفسه، ٢٥٥/٣.

(٤) سورة الصافات، آية١-٣.

(٥) الزمخشري : الكشّاف، ٣٤٤/٣.

(٦) انظر : المصدر السابق، ٣٣٤/٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قال تعالى : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم﴾[1].

يرى الزمخشري أن الجملة (والذين تبوءوا) وهم الأنصار، وهي جملة معطوفة على الأنصار. فإن قلت : "ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال تبوءوا الإيمان ؟ قلت : معناه تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان "[2]. ويستشهد بشاهد على الآية[3] :

علّفْتَها تِبْنًا وماءً بارِدًا حتى غَدَتْ همّالة عيناها

"الذين تبوءو الدار تقابل علفتها تبنًا، والإيمان تقابل (وماءً) فالتبوّء يقابل العلف، والإخلاص يقابل السقيا، ولكن الزمخشري وبعد استشهاده بالبيت يعود ليطرح رأيًا آخر هو أن المقصود دار الهجرة ودار الإيمان لكن الله تعالى "أقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه، أو سمى المدينة؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان"[4]. مما سبق نلاحظ أنّ الزمخشري كان يعيد تفسيره لأغلب التراكيب والأساليب إلى المعنى.

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون﴾[5]. المسألة هنا في الصفة أحييناها، فهي فعل ماضٍ يصف الأرض. وجاز ذلك لكون الأرض الميتة الواردة في سياق النص القرآني أرضًا مطلقة لا محدودة بعينها فهي كالفكرة في الحكم تمامًا[6]، واستشهد في شرحه بالبيت[7] :

ولَقَدْ أَمرُّ على اللّئيمِ يَسُبُّني فَمَضَيْتُ ثُمّة قُلْتُ لا يعنيني

---

(١) سورة الحشر، آية ٨-٩.

(٢) الزمخشري : الكشّاف، ٨٣/٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٣/٤.

(٤) المصدر نفسه، ٨٣/٤.

(٥) سورة يس، آية ٣٣.

(٦) انظر : الزمخشري، الكشّاف، ٧٠/١.

(٧) المصدر السابق، ٧٠/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فيوضّح الزمخشري أنّ الأرض الميتة تقابل (اللئيم) وأحييناها تقابل (يسبني). "فكما أن الأرض الميتة مطلقة، كذلك المراد من اللئيم فهو لئيم من اللؤماء، أي لئيم كان، وكما أن الصفة (أحييناها) تصف الأرض الميتة التي هي في حكم النكرة تجيء جملة يسبني "وصف اللئيم في المعنى وحال منه باعتبار اللفظ"[١].

وفي قوله تعالى : ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾[٢]. فذات الألواح والدُسر "من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدي مؤدّاها بحيث لا يفصل بينها"[٣]. يوضح الزمخشري أن في الآية إشارة إلى الشيء بصفته أو صفاته كأنما هو عود إلى بدايات اللغة حيث تكثر الموضوعات قبيل الاصطلاح على أسماء خاصة لكل ذي بال، فيفهم المقصود بذات الألواح والدُسر من خلال الوصف وبربطة بالمعنى.

يُلاحظ مما سبق أن الزمخشري في تفسيره للقرآن وبيان مواطن الإعجاز كان واضعًا نصب عينيه المعنى وما يحمله من دلالات، وكان يستشهد بشواهد من الشعر ليتضح المعنى الذي يريد إثباته.

ب-العلاقة بين الكلمة والسيـــــــــــاق:

لقد تجاوز الزمخشري قضيّة اللفظ إلى معنى السياق، تبنّى معنى التركيب، كتفريع على معنى اللفظ، فناقش التراكيب ودلالتها ضمن السياقات وأمثلة ذلك كثير في كشاف أذكر منها : في تفسير قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هـم بمؤمنين﴾[٤]. "فإن قلت كيف طابق قوله وما هم بـمؤمنين قولـهم- آمنا بالله وباليوم الأخر- والأوّل في ذكر شأن الفاعل لا الفاعل، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟

---

(١) الـبغدادي، عـبدالقادر بن عمر : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق : عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٢، ١٩٧٧م، ٢٠٦/٤.

(٢) سورة القمر،آية ١٣.

(٣) الزمخشري : الكشّاف، ٣٨/٤.

(٤) سورة البقرة، آية ٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قلت : القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريق أدى إلى الغرض المطلوب، وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم، بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع"[1]. ونحوه قوله تعالى : ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾[2]، هو أبلغ من قولك، "وما يخرجون منها"[3].

فبيّن الزمخشري في الآيات السابقة أنّ الجملة الاسميّة تفيد الثبات والاستقرار في المعنى الذي تتضمنه داخل السياق والتي نفتقده مع الجملة الفعلية التي تشير دائمًا إلى التجدد أو التغيير والانقطاع.

قال تعالى : ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾[4]. "فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو ؟ قلت : لما في ذلك من الدلالة على إثبات المثوبة واستقرارها"[5].

وفي قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده شيئا ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾[6]. فالتعبير بالجملة الاسميّة "ولا مولود هو جاز عن والده شيئـًا". وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه"[7].

---

(١) الزمخشري : الكشّاف، ٢٠٣/١.
(٢) سورة المائدة، آية ٣٧.
(٣) الزمخشري : الكشّاف، ١٩٦/٢.
(٤) سورة البقرة، آية ١٠٣.
(٥) انظر : الزمخشري : الكشّاف، ٣٠٢/١.
(٦) سورة لقمان، آية ٣٣.
(٧) الزمخشري : الكشّاف، ٣٣٨/٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قال تعالى: ﴿ويوم نسيّر الجبال، وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا﴾[1]. "فإن قلت : لم جيء بحشرناهم ماضيًا بعد تسير و ترى ؟ قلت للدلالة على أنّ حشرناهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك"[2].

وفي قوله تعالى : ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون﴾[3]. "فإن قلت كيف أورد جواب الشرط مضارعًا مثله، ثم قال (وودوا) بلفظ الماضي؟ قلت : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة كأنه قيل : وودوا قبل شيء كفركم وارتدادكم، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعًا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض، وردّكم كفارًا أسبق المضمار عندهم وأولها، لعلمهم أنّ الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء أن يقصد أهم شيء عند صاحبه"[4].

نلاحظ براعة الزمخشري، في تفسير المعنى من خلال تفحصه للمعاني داخل سياقاتـــها باستخدام أسلوب الحوار، الذي يجذب السامع ويرفع الرتابة عن الكلام، وهو بذلك ينتهج ما سار عليه الجرجاني في معالجة قضيّة ما، فالجرجاني وظّف الحوار في إثبات نظريته (النظم)، فكان يثير حواراً في ناحية ما ممهّدًا كحوار آخر ينقل إليه، وكذلك فعل الزمخشري.

---

(١) سورة الكهف، آية ٤٧.

(٢) الزمخشري : الكشّاف، ٤٨٧/٢.

(٣) سورة الممتحنة، آية ٢.

(٤) الزمخشري : الكشّاف، ٩٠/٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قال تعالى : ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾(1). "فإن قلت لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربّانيّة، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصيّة بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرًّا"(2).

بأنّي قد لَقيتُ الغولَ تهوى ... بِسَهْبٍ كالصَحيفَةِ صَحْصَحَان
فأَضْرِّبُها بِلا دَهَشٍ فَخرّتْ ... صَرِيْعًا لليَدَيْنِ وللجِرَان

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هوان وثباته عند كل شدّة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميّت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، لما كان من الدلائل على الدرة الباهرة"(3).

يُلاحظ أن الزمخشري كان يهتم في تفسيراته بالدلالات اللغوية والعلاقات النحوية متوخيًا معاني النحو، وكانت تفسيراته تنحى منحى عقلانيًا منطقيًا كما كان يفعل الجرجاني، وقد تعود تأويلات الزمخشري وتفسيراته العقلانية لموافقة مذهبه الاعتزالي، فهو يوازن بين الفروق الذهنية لصيغ النظم وائتلافه، كما في الأمثلة السابقة في تفسيره لصيغة المضارع.

(1) سورة فاطر، آية ٩.
(2) الزمخشري : الكشّاف، ٣٠١/٣.
(3) انظر : المصدر السابق، ٣٠١/٣-٣٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ج-العلاقة بين الجملة والسياق :

اتبع الزمخشري ما سلكه الجرجاني في تطبيقه لنظرية النظم وما يتعلق بجانب التركيب وخاصة الجملة وكيف ينظر إليها في السياق تقديـــمًا، وتأخيرًا، وفصلاً، ووصلاً، وحذفًا ... إلى غير ذلك مما يخص الجملة في سياقاتــها المختلفة وأبدأ بـــ:

١-التقديم والتأخير:

لقد وقع الزمخشري في التقديم والتأخير على أغراض متباينة هي الأهمية أو العناية والتوكيد ومراعاة المقام أو السياق ...

وهذه الأغراض كانت تخضع لعلاقات نحوية مختلفة وتغوص في أسرار تقتضيها أحكام النحو ومعانيه ووجوهه المختلفة. ويتنوع حديث الزمخشري في التقديم والتأخير ويتجاوز الإطار الذي رسمه عبد القاهر الجرجاني فيه إذ يذهب إلى القول بأن التقديم لا يحمل معه دائمًا صورة لمعنى جديد، على حين نجد النقيض في دلائل الإعجاز فيقول الجرجاني :"واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين فيجعل مفيدًا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض"(١).

وأمثلة التقديم والتأخير في كشّاف الزمخشري كثيرة أذكر منها : قوله تعالى : ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾ (٢). يقول :"-أئفكًا- مفعول له تقديره: أتريدون آلــهةً من دون الله إفكًا، وإنـــما قدم المفعول على الفعل للعناية، وقدّم المفعول له على المفعول به؛ لأن كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنـــهم على إفك وباطل في شركهم"(٣).

---

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٩٩

(٢) سورة الصافات، آية ٨٦.

(٣) الزمخشري : الكشّاف، ٣٤٤/٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي قوله تعالى :﴿ وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾(١)، "فإن قلت أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاءت عليه؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط توقعهم بحصانتها ومنعها إياهم"(٢).

وفي قوله تعالى :﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾(٣). يقول : " -لو- حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بُدّ من فعل بعدها في -لو أنتم تملكون- وتقديره : وأبدل من الضمير المتّصل الذي هو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتّصل به من اللفظ، فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره، وهذا الوجه الذي يقتضيه علم النحو فأما ما يقتضيه علم البيان فهو إن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ، ونحو قول حاتم : "لو ذات سوار لطمتني"؛ وذلك لأن الفعل الأول كما سقط لأجل المفسّر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر"(٤).

يظهر مما سبق أن الزمخشري يقف على ما يقتضيه علم النحو، وما يقتضيه علم البيان، ويرى أن المعنى النحوي ينطوي على عناصر فنية ودلالات ذوقية، وأنه لا فاصل بين الدلالة النحوية والدلالة البلاغية، منتهجًا الطريق الذي سار فيه الجرجاني عندما ردم الهوة بين النحو والبلاغة، فعندما شرح الزمخشري قوله تعالى : ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده﴾(٥)، قال: "(وأجل مسمى عنده) ؟ قلت : لأنه تخصيص بالصفة فقارب المعرفة كقوله : (ولعبد مؤمن خير من مشرك). فإن قلت

---

(١) سورة الحشر، آية٢.

(٢) الزمخشري : الكشّاف، ٨٠/٤.

(٣) سورة الإسراء، آية١٠٠.

(٤) الزمخشري : الكشّاف، ٤٦٧/٢.

(٥) سورة الأنعام، آية٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جديد ولي عبد كيس وما أشبه ذلك. فما أوجب التقديم؟ قلت: أوجبه أن المعنى : "وأي أجل مسمّى عنده" تعظيمًا لشأن الساعة فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم"(١).

وفي قوله تعالى : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾(٢). يقول : "فإن قلت كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدمت عليها ثانيًا ؟ قلت : سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية؛ لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدئ بذكرها، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه؛ لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب"(٣).

وفي قوله تعالى :﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾ (٤).يقول: "فإن قلت:لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق"(٥).

مما سبق كان للزمخشري وجهات نظر متميّزة في شروحاته، وكان له أسلوب مميّز من خلال نظرته الفاحصة المتحققة في النص القرآني، وإبرازه لدور التقديم والتأخير في نظم الكلام وتركيبه.

٢-الفصل والوصل:

لقي الفصل والوصل في تفسير الزمخشري الأهمية ذاتها التي ركزَها على التقديم والتأخير من خلال شرحه للجملة في السياق، ومن أمثلة ذلك: في شرحه للآية: ﴿فقال

---

(١) الزمخشري : الكشّاف، ٣، ٨٥.
(٢) سورة النور، آية ٢،١.
(٣) الزمخشري : الكشّاف، ٣/٥٠.
(٤) سورة الأنبياء، آية ٧٩.
(٥) الزمخشري : الكشّاف، ٢/٥٨٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر﴾[1]. "فإن قلت: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قلت: لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد"[2].

فالزمخشري يقف عند الجملة الثانية ويقع على السر في ترابطها وصلتها مع الجملة الأولى، فيربط تفسيره بالنظم وذلك بتوخي معاني النحو، فالتوكيد يترك شيئًا من الاهتزاز في الجملة الأولى، ومن ثم كانت إعادة هذا التركيب وتوكيده في الجملة الثانية صدى لهذا الاهتزاز إلى مواقع في النفس أعمق وأرحب.

قوله تعالى وفي تفسير : ﴿قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويناهم كما غوينا . تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾[3]. يقول الزمخشري : "وإخلاء الجملتين من العاطف، لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى"[4].

ولقد فسّر الزمخشري الاستئناف على معانٍ مختلفة كالتوكيد والتعجب[5]، من ذلك قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾[6]. ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾[7].

والوصل عند الزمخشري يأتي لتقارب واختلاف. ﴿قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾[8]. يقول: "فإن قلت : علام عطف قوله فاذهبا ؟ قلت على الفصل الذي يدل عليه كلا، كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون"[9].

---

(١) سورة المدثر، آية٢٤.-٢٥

(٢) الزمخشري : الكشّاف، ١٨٣/٤.

(٣) سورة القصص، آية٦٣.

(٤) الزمخشري : الكشّاف، ١٨٨/٣.

(٥) انظر: المصدر السابق، ٢٣٩/٢.

(٦) سورة يونس، آية٤٥.

(٧) سورة الفرقان، آية٢١.

(٨) سورة الشعراء، آية ١٥.

(٩) الزمخشري : الكشّاف، ٨٨/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي قوله تعالى :﴿أولئك على هدى من ربّهـم وأولئك هـم المفلحون﴾[1]. يقول : "فإن قلت لم جاء مع العاطف، وما الفرق بينه وبين قوله ﴿أولئك كالأنعام بل هـم أضل أولئك هـم الغافلون﴾[2]؟ قلت: قد اختلف الخبران هاهنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين فإنـهما متفقان؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بـمعزل".

يظهر لنا من الأمثلة السابقة حقيقة الفصل والوصل عند الزمخشري، وكيف كان يؤيد ذلك بحجج عقلية؛ ليوضح أنه قد يكون الإعجاز والسر في الوصل في آية ما، وقد لا يكون في آية أخرى، بل يكون الفصل أولى وأفضل وتظهر المزيّة والحسن من خلال نظم الكلام ومعرفة أسرار النحو وأحكامه، بحيث تُعرف الأماكن التي يجب فيها الفصل من الوصل .. وهكذا ..

وأرى أن في تفسيرات الزمخشري الكثير من المتعة والتشويق لمعرفة أسرار إعجاز القرآن[3].

٣-الحـــــــذف :

تناول الزمخشري الحذف في تفسيره، وكان يبيّن المواضع التي تم فيها الحذف في الآيات، ويعلل حدوثه بحجج عقلية وسلاسة، فيبيّن أن الحذف لا يُخلّ في المعنى، ولا ينقص من البلاغة، فكان يوضّح موضع الحذف ويقدره ليصل إلى الأفهام، وتتشكل الصورة بإطار يزيد من حسنها وجمالها. ومن أمثلة الحذف:

في قوله تعالى: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾[4]."حيث حذفت اللام من جعلناه؛ لأن (لو) دخلت على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط، ولم

(١) سورة البقرة، آية ٥.

(٢) سورة الأعراف، آية١٧٩.

(٣) الزمخشري : الكشّاف، ١٤٥/١.

(٤) سورة الواقعة، آية٧٠.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضمون جملتيها إن الثاني امتنع لامتناع الأول"[1].

تبيّن هنا بلاغة التركيب وحلاوته في اللفظ بين أن تقرأ الآية بالحذف أو بثبوت اللام، فينبه الزمخشري إلى هذه الدقائق من الأمور ليكشف الجمال والحسن في توخي معاني النحو، ومعرفة المواقع والنظرة المدققة للنّص، بحيث يكشف أسرار تراكيبه داخل السياق، ويعدّ (الحذف) من أهم هذه الدقائق التي يبحث فيها الزمخشري وينوّه بها، وهو بهذا يطبق نظريّة النظم التي وضعها الجرجاني بطريقة مبدعة. وفي قوله تعالى :﴿ ما ودعك ربك وما قلى﴾[2]. يقول :"حذف الضمير من (قلى) كحذفه من الذاكرات يريد والذاكراته ونحوه: (فأوى، فهدى، فأغنى) وهو اختصار، وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف"[3].

وفي قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد﴾[4]. يقول: (لو ترى) جوابه محذوف تقديره : "ولو ترى لرأيت أمرًا شنيعًا". ويبيّن الزمخشري أنّ الحذف هنا جاء من أجل المبالغة[5].

وفي قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾[6]. يبيّن الزمخشري أن الحذف هنا جاء للتعظيم. يقول:"ولو ترى جوابه محذوف -أي رأيت أمرًا عظيمًا"[7].

(١) الزمخشري : الكشّاف، ٥٧/٤.
(٢) سورة الضحى، آية ٢.
(٣) الزمخشري : الكشّاف، ٧٦٦/٤.
(٤) سورة الأنعام، آية ٢٧.
(٥) انظر : الزمخشري : الكشّاف، ٥٨/٢.
(٦) سورة الأنعام، آية ٩٣.
(٧) الزمخشري : الكشّاف، ٩٣/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي قوله تعالى:﴿ ربِ أرني أنظر إليك﴾[1]. "فقد حذف حرف النداء؛ لأنه منادى قريب، وقاطن للحديث وفيه تقريب به وتلطيف لـمحله"[2].

وفي قوله تعالى : ﴿قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف﴾[3]. حيث أراد : لا تفتؤ، بحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس أي لتفتؤنْ بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتًا لم يكن بد من اللام والنون[4].

المبحث الثاني : النظم والدلالة :

البلاغة كما ذكرت سابقًا هي الركن المتين الذي اعتمد عليه الجرجاني في شرحه لنظرية النظم، وربط البلاغة بالـمعاني الدلالية (المعاني الثواني) بـما تضمنه من استعارة وكناية وتـمثيل...

وطبّق الزمخشري هذا الجانب الـمهم من البلاغة في تفسيره، فالبلاغة هي اللبنة الأساسية التي تقوم عليها نظرية النظم؛ لأنـها تـهتم بـمعاني الكلمات ومدلولاتـها، ويوظّف الزمخشري البلاغة واللغة لخدمة اعتزاله، لما توجده من أثر في النفس بسبب ما تتضمنه من أساليبَ فيها الكثير من الحس والمزيّة، وهو في تفسيره يهتم بتقرير أثر هذه الأساليب ويعالج القضايا البلاغية، بعد أن ينظر إلى النص القرآني نظرة المتفحّص المتحقق؛ ليخرج لنا صورة على أحسن شكل بأسلوب فيه كثير من التميّز والجدارة.

لم يفرّق الزمخشري بين التشبيه والتمثيل فكان يعلّق على صورة معيّنة ويشرحها ثم يدخلها في باب التمثيل والتخييل. ويضيف مصطلح (تصوير معنى) ويطلق على

(1) سورة الأعراف، آية ١٤٣.
(2) الزمخشري : الكشّاف، ٤٦١/٢.
(3) سورة يوسف، آية ٨٥.
(4) الزمخشري : الكشّاف، ٣٣٩/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاستعارة (تصوير) ويقصد بالتصوير التشبيه بخلاف عبد القاهر الذي نفى أن يكون التشبيه مجازًا. وسأوضح فيما يلي كيف تناول الزمخشري المعاني الدلالية في كشافه ويتمثّل ذلك بالاستعارة والتشبيه.

أ-الاستعـــــــــارة :

ومن أمثلة الاستعارة في كشافه :

عند تفسيره قوله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾[1]. يتساءل الزمخشري عما إذا كان من الجائز تسمية تركيب (صم بكم عمي) استعارة، "فالأغلب "على تسميته تشبيهًا بليغًا لا استعارة؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوًا عنه صالحًا؛ لأن يُراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام"[2].

ويأتي الزمخشري بثلاثة أبيات ليستشهد بـها على الاستعارة في الآية، فالبيت الأول لأبي تمام، والثاني للزمخشري، والثالث لعمران بن حطان :

* فَيَـصْعَدُ حَـتى يَظُـنَّ الجهـولُ ... بـأنّ لَـهُ حَاجَـةً في الـسماءِ[3]

* لا تَحَـسبُوا أنّ فَـي سِرْبالِهِ رَجُلاً ... فَفـيهِ غَـيْثٌ ولَـيْثٌ مُـسْبِلٌ مُشْبِلُ[4]

* أَسَـدٌ علَـيَّ وفي الحـرُوبِ نَعَامةٌ ... فَـتْخَاءُ تَنْفـرُ مـن صَـفِيرِ الـصّافِرِ[5]

ذكر أن في البيت الأول استعارة في كلمة (يَصعد)، استعارها لعلو القدر والـمنـزلة، وبنى على هذا المعنى الخفي الشطر الثاني، وهو الترقي للسماء، وكذلك البيت الثاني، استعار للممدوح غير الـمذكور صفة الكرم والشجاعة،وبنى على

(١) سورة البقرة، آية ١٨.

(٢) الزمخشري : الكشّاف، ١/ ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق، ٢٠٦/١.

(٤) المصدر نفسه، ٢٠٦/١.

(٥) المصدر نفسه، ٢٠٦/١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

استعارة صفة الكرم والشجاعة ثـــم الليث والغيث .. وأما ثالث الأبيات فالأسد بـــمعنى الشجاعة والنعامة مستعارة للجُبْن[1].

يُلاحظ أنّ الزمخشري، قد ذكر الاستعارة دونـــما أية تفريعات وتقسيمات على خلاف ما جاء به الجرجاني في باب الاستعارة، عندما قسّم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة. ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرت فيها الاستعارة في كشاف الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿فإنـها لا تعمى الأبصار﴾[2]. يرى أن: " الذي قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة، وكأنه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أراد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار[3].

يبسط الزمخشري المسألة ويوضحها بإسهاب إن كان فيها صورة بلاغية على غير ما يفعل في الآيات التي تخلو من صور بلاغيّة، وهو أن ســـمى ما في الآية (استعارة) فإنه رجع وأطلق عليه (التصوير). والتصوير عنده التشبيه والتمثيل والتخييل والاستعارة.

وفي قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهـم﴾[4]، يجيز للصورة في هذه الآية أن تكون على طريق المجاز المسمى (استعارة) [5].

يتضح مما سبق غياب الوضوح في المصطلحات الدلالية (البلاغية)، وقد يكون هذا الخلط الذي وقع فيه الزمخشري ناجمًا عن اهتمامه بالمعنى، فهو يبنيه بالطريقة التي يراها

---

(١) انظر : الزمخشري : الكشّاف، ٢٠٦/١.

(٢) سورة الحج، آية ٤٦.

(٣) الزمخشري : الكشّاف، ١٧/٣.

(٤) سورة البقرة، آية ٧.

(٥) انظر : الزمخشري : الكشّاف، ١٦٠/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مناسبة، وحسب ما يتوافق و مذهبه الاعتزالي، فيدخل المعاني في باب أو أكثر من أبواب البلاغة دونـما دقة في الحكم.

التشبيه عند الزمخشري :

في تفسيره قوله تعالى: ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم﴾(1).

يستشهد بالبيت الشعري :

وَيَـوْماً توافِيْـنا بِـوَجْهٍ مقـسَّمٍ   كـأنْ ظَبْـيَةً تعطُـو إلى نَاضِـر السَلَمِ

جاء الزمخشري بـهذا البيت مستشهدًا على جواز التشبيه بـ (كأن) مع حذف اسم أن في الآية السابقة فالبيت على تقدير (كأنـها ظبية) والآية على تقدير (كأنه لم يسمعها)، فحذف اسم أنّ وأبقى خبرها. وتقدير الـمعنى في الآية أنه صار "مثل غير سامع"(2).

وفي الآية :﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات﴾(3). عندما شرح الزمخشري الآية السابقة ذكر أن فيها تشبيهًا(4).

على الرغم من عدم الدقة في إطلاق الـمصطلحات على الدلالات البلاغية عند الزمخشري، إلاّ أنه أفاد اللغة العربية باعتماده البلاغة والـمجاز أصولاً في فهم القـرآن.

ويقدر العلماء الجدارة التي تـميز بـها الزمخشري في تفسيره القرآن الذي أبرز من خلال تطبيقه البلاغي الأسلوب الـمتفوق الممتاز لـهذا الكتاب. فالزمخشري في بحثه عن أسرار الإعجاز القرآني، إنـما أوّلاً يبحث عن نظم الكلام وما يدلّ عليه من معانٍ ثـم الأحوال النفسية القائمة وراء هذا النظم.

---

(1) سورة الجاثية، آية ٨.
(2) انظر : الزمخشري :الكشّاف، ٥٠٦/٣.
(3) سورة البقرة، آية١٩.
(4) الزمخشري :الكشّاف، ٢٠٧/١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمة

ليس ثمّة شك في أن القرآن الكريم قد ترك أثرًامهمًافي الدراسات النحوية والبلاغيّة العربية، إذ إن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم قد جعل العرب يتساءلون عن كنهه، والكيفيّة التي تجعله مميّزًا ومتفوقًا على كل ما عرفوه من استخدامات لغوية، وقد كان لمثل هذه الدراسات التي تحاول البحث في الإعجاز البياني أثر هام في تطور الدراسات النحوية والنقديّة العربية، ولعلّ عبد القاهر الجرجاني كان أبرز ناقد عربي تصدّى لموضوع الإعجاز، محاولاً البحث في كنهه وفق منهجيّة علمية دقيقة. وإذا كان الجرجاني قد قدَّم نظريّة هامة شملت جوانب واسعة في المجالات اللغوية والبلاغية، فإن الزمخشري كان أكثر العلماء اللاحقين اتكاءً على آراء الجرجاني، ومحاولة الإفادة منها، وقد تجلى ذلك في تفسيره "الكشّاف"، الذي لم يقتصر على مجرّد شرح الآيات وتفسير معاني المفردات، بل حاول فيه الزمخشري عملاً يهدف إلى بيان مواطن الإعجاز التي تتجلى في القرآن الكريم عن طريق دراسة علميّة منظّمة، وقد حاولت هذه الدراسة الوقوف على أبرز آراء الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز بغية شرحها وبيان أهميّتها، ومن ثـمّة محاولة رصد آثار الجرجاني في كشاف الزمخشري، الذي منح تنظيرات الجرجاني الحيوية حينما حاول تطبيقها بشكل موسّع، ويمكن تلخيص أبرز الأمور التي خرجت بـها هذه الرسالة وذلك على النحو الآتي :

١- يُعد عبدالقاهر الجرجاني أبرز ناقد عربي تصدّى لدراسة الإعجاز اللغوي، في القرآن، حيث استطاع أن يبني نظريّة متكاملة تعتمد على أسس علميّة تمثلت في نظريّة النظم التي خطت بالدراسات اللغوية والبلاغيّة خطوات هامة، وقد تبلورت آراء الجرجاني هذه في كتابه دلائل الإعجاز الذي يحاول الجرجاني فيه أن يشرح نظريته معتمدًا على مجموعة من الشواهد القرآنية والشعرية، وذلك

© Arabic Digital Library Yarmouk University

بغية إيضاح الأسس العامة التي تقوم عليها نظريّة النظم، ذلك إن غايته لم تكن شرح آيات القرآن الكريم وتفسيرها، وإنما تقديم نظريّة تمكّن الباحثين في كنه هذا الإعجاز من الخروج من أسر التصورات التقليديّة والانطلاق من أسس جديدة تعتمد النحو والبلاغة أساسًا لا يمكن الفصل بينهما.

أما أبرز القضايا التي ناقشها الجرجاني في هذه النظريّة فيمكن تلخيصها على النحو التالي :

أ- رفض الجرجاني التصورات السابقة له التي تفصل بين اللفظ والمعنى، وحاول إقامة تصوّر جديد يعتمد النظم أساسًا للعمليّة الإبداعية، بحيث لا يحتمل الفصل بين اللفظ والمعنى، أو تفضيل أحدهما على الآخر، فالألفاظ هي وحدات اللغة ولا تتفاضل في ذاتها وإنما يكون لها الفضل والمزيّة من حيث دلالتها على المعنى ومن حيث موقعها من النظم.

ب- يكمن الإعجاز البياني عند الجرجاني في نظرية النظم التي عرّفها بأنّها توخّي معاني النحو وأحكامه وبيان ما بين معاني الكلم من علاقات، ويأتي الإعراب نتيجة أو تابعًا للترتيب الخاص الذي ينجم عن اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض، ولا تفاضل فيه، فليس لأحد الفضل أن يعرف أن الفاعل مرفوع، والمفعول به منصوب، ولكن الفضل في الوضع الذي أوجب هذا الرفع أو هذا النصب، وبذلك يتخطّى الجرجاني بنظرية النظم الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركّبة، فالحكم على النظم عنده هو النظر في المعنى منظومًا، والذوق هو الفيصل الأخير في الحكم.

ج- أعاد الجرجاني نظرية النظم إلى ما كانت عليه من أصالة، وربطها بالبلاغة العربية، فجاءت نظريّة عربيّة خالصة استعانت بأرسطو، واستطاع عبدالقاهر

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بذلك ردم الهوة الفاصلة بين النحو، وربط الدلالات البلاغية بالدلالات النحوية من استعارة وكناية وتمثيل، وتقديم وتأخير وفصل ووصل وحذف، فأخرج البلاغة من إطارها التقليدي الذي لازمها فترات طويلة من الزمن.

د- قورنت نظريّة النظم الجرجانيّة بنظريّة القواعد التحويليّة لتشومسكي وبالنظريّة البنيوية، فكان الجرجاني السبّاق لكل ما توصّل إليه علماء القرن العشرين الميلادي.

أما الزمخشري، فقد كان أكثر العلماء اللاحقين اعتمادًا على آراء الجرجاني، إذ إنّه اعتمد على آرائه وعمل على تطبيقها بشكل واسع في تفسيره الكشّاف. وقد وافق الزمخشري الجرجاني في معظم آرائه، غير أن الزمخشري قد خلط بين المصطلحات البلاغية الدلاليّة فلم يفرّق بينها، وقد جاء تطبيق الزمخشري لنظريّة النظم في كشّافه على النحو الآتي :

أ- يحاول الزمخشري تفسير القرآن عن طريق نظم مفردات المادة في معنى يجمعها في تركيب واحد ضمن سياق واحد.

ب- ينبّه إلى أثر نظم الكلام في المعنى، فينظر إلى القرآن نظرة الفاحص المتحقق وعليه يتم تأويل المعنى وتفسيره.

ج- يحاول أن يوجد أكثر من تفسير للمعنى الذي يصادفه، ويطرح الآراء ويفسّر الآيات مع ما يراه مناسباً، وفي مواطن كثيرة مع ما يتناسب و مذهبه الاعتزالي.

د- يثير حوارًا في ناحية ممهداً لحوار آخر ينتقل إليه إلى آية أخرى، وهو بذلك يتبع نـــهج الجرجاني في استخدام الحوار للتوصّل إلى الـــهدف المراد.

هـــ- يستشهد بالشعر في شروحاته، فكان الشعر جانبـــاً مهمـــاً عنده للاستدلال على صحّة تفسيراته.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

و- يطبق نظريّة النظم في الجملة داخل السياق، وذلك بشرحه الآيات وتأويلها بسبب النظم في الجمل داخل السياقات، وما تتضمنه من تقديم وتأخير وفصل ووصل وغير ذلك مما طرحه الجرجاني في نظرية النظم مما يتعلق بالجملة والسياق، فأظهر ما في القرآن من جمال في التراكيب والسياقات والنص كاملاً.

ز- يناقش المسائل مناقشة منطقيّة عقليّة، ثم يترك للمتلقي التفكير وتذوّق جمال النّص القرآني.

ح- يعتمد على البلاغة أساسـاً في فهم إعجاز القرآن، على الرغم من أنه خلط بين المصطلحات الدلالية البلاغية، ولم يفرّق بينها، ولكنه كان يشرح الآيات بأسلوب بلاغي متميّز استحق به الجدارة في البلاغة والتأويل والشرح، إذ استطاع بتطبيقه نظريّة النظم أن يخرج البلاغة من الرتابة التي كانت عليها إلى جو مليء بالحركة والحياة مثلما فعل الجرجاني من قبله، ومن يقرأ كتاب الكشّاف فسوف يجد متعة كبيرة في تفسيرات الزمخشري التي تحرك الأفئدة وتشعر النفوس بالجمال، وتلفت الأنظار إلى أسرار غائرة في الأعماق.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

١- ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٢- الأنباري، كمال الدين، عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله أبو البركات (ت٥٧٧ هـ) : نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تحقيق : إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط٢، ١٩٧٠م.

٣- الباخرزي، نورالدين العلي بن الحسن بن أبي الطيب أبوالحسن (ت٤٦٧هـ) : دمية القصر وعصرة أهل العصر، ط٢، (د.ت).

٤- الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر (ت٤٠٣هـ) : إعجاز القرآن، تحقيق : سيّد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٥، (د.ت).

٥- ــــــــــــ: نكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق : سلام محمد زغلول، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧١م.

٦- البغدادي، عبدالقادر بن عمر (ت١٠٩٣هـ) : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح : عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٢، ١٩٧٧م.

٧- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: تحقيق :محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٨- التفتازاني، سعد الدين سعود بن عمر (ت٧٩١هـ) : شروح التلخيص على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط٤، (د.ت).

٩- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري أبو عثمان (ت٢٥٥هـ) : البيان والتبيين، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، (د.ط).

١٠- ــــــــــ: الحيوان، تحقيق : عبدالسلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي، ١٩٦٩م.

١١- ــــــــــ :رسائل الجاحظ، تحقيق : حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٣م.

١٢- الجرجاني، الإمام عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد أبو بكر (ت٤٧١ هـ):أسرار البلاغة، تحقيق : خفاجي، محمد عبدالمنعم، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م.

١٣- ــــــــــ :دلائل الإعجاز : شرحه وعلّق عليه ووضع فهارسه، محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

١٤- ــــــــــ:الرسالة الشافية في الإعجاز، (عن نسخة حسين حلبي المصورة بمعهد مخطوطات الجامعة العربية، ملحقة بكتاب دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر.

١٥- الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـ) : التعريفات، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٨م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٦- الحموي، شهاب الدين ياقوت عبدالله أبو عبدالله (ت٦٢٦هـ) : معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، (د.ت).

١٧- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ) : الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٨- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر أبو العباس (ت٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٨م.

١٩- الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبدالله (ت٧٤٨هـ) : سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢٠- الرمّاني، علي بن عيسى بن عبدالله أبو الحسن (ت٣٨٦هـ) والخطابي، أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي أبو سلمان (ت٣٨٨هـ) و الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد أبو بكر (ت٤٧١هـ)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي. بيان إعجاز القرآن للخطابي، النكت في إعجاز القرآن للرماني، الرسالة الشافية للجرجاني، تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م.

٢١- الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ) : البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (د.ت).

٢٢- الزمخشري، الإمام أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) :أساس البلاغة، تحقيق : محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢٣- ـــــــــــــــ:الكشاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).
٢٤- ـــــــــــــــ:المحاجاة بالمسائل النحوية، تحقيق : بـــهيجة باقر الحسني، جامعة بغداد، مطبعة الأسد، (د.ط)، ١٩٧٣م.
٢٥- السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي، أبو نصر (ت٧٧١هـــ) : طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : مصطفى عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
٢٦- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـــ) : الكتاب، تحقيق : عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٧م.
٢٧- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد أبو بكر (٩١١هـــ) : الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الـــمكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٨- ـــــــــــــــ: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
٢٩- طاش كبرى زاده، عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل أبو الخير (ت٩٦٨ هـــ) : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق : كامل بكري، وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ط)، ١٩٦٨م.
٣٠- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـــ) : تفسير الطبري، هذّبه وقرّبه وخدمه، صلاح عبدالفتاح الخالدي، خرّج أحاديثه، إبراهيم محمد علي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٨هـــ.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣١- عبدالجبّار المعتزلي، قاضي القضاة، عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبّار الهمذاني الأسداباذي (ت٤١٥هـ): المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق : أمين الخولي، دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، (د.ط)، ١٩٦٠م.

٣٢- ابن العماد، عبدالحي بن أحمد بن محمد الحنبلي أبو الفلاح (ت١٠٨٩هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

٣٣- القرطاجني، حازم : منهاج البلغاء وسراج الأدباء (ت٦٨٤هـ)، تحقيق : محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.

٣٤- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف أبو الحسن (ت٦٤٦هـ) : إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٢م.

٣٥- الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد الدمشقي (ت٧٦٤هـ) : فوات الوفيّات، تحقيق : إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٤م.

٣٦- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء (ت٧٧٤هـ) : البداية والنهاية، تحقيق : هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢ ، ١٩٧٧م.

٣٧- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري، أبو الفضل (ت٧١١ هـ) : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

٣٨- اليافعي، عفيف الدين عبدالله بن أسعد بن علي أبو السعادات (ت٧٦٧هـ) : مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق : خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانيًا: المراجع:

١- بدوي، أحمد أحمد، عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، ط٢، (د.ت).

٢- بشر، كمال : علم اللغة العام، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

٣- الجندي، درويش : النظم القرآني في كشاف الزمخشري، مكتبة نهضة مصر، (د.ط)، ١٩٦٢م.

٤- حسان، تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩م.

٥- حمادي، صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م.

٦- خفاجي، محمد عبدالمنعم : عبدالقاهر والبلاغة العربية، المطبعة المميزية، مصر، ط١، ١٩٥٢م.

٧- خليفة، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، مطبعة جديدة ومنقحة، ١٩٩٤م.

٨- خليل، أحمد : المدخل في دراسة البلاغة العربية، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٨م.

٩- دهمان، أحمد علي : الصورة البلاغية عند عبدالقاهر منهجاً وتطبيقاً، دمشق، ط ١، ١٩٨٦م.

١٠- دي سوسير، فريدناند : محاضرات في علم اللغة، ترجمة : أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة، الإسكندرية، ط٣، (د.ت).

١١- الذهبي، محمد حسن الذهبي : التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٩٧٦م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٢- زغلول، محمد : أثر القرآن على النقد العربي، محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م.

١٣- السعران، محمود : علم اللغة، دار المعارف، مصر، (د.ط)، ١٩٦٢م.

١٤- سلام، محمد زغلول : أثر القرآن في تطوّر النقد العربي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م.

١٥- سلدن رامان : النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة : جابر عصفور، دار قباء، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٨م.

١٦- سلطان، منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، (د.ت).

١٧- أبو سليمان، صابر حسن محمد : رونق البيان في إعجاز القرآن، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

١٨- الصغير، محمد حسين علي : نظرية النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦م.

١٩- ضيف، شوقي : البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط٢، ٠د.ت).

٢٠- طبانة، بدوي : التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨٥م.

٢١- عبدالرحمن، عائشة : الإعجاز البياني، ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية وبيانية)، دار المعارف، القاهرة، ط١، (د.ت).

٢٢- عرفة، عبدالعزيز عبدالمعطي : قضيّة الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٢٣- ـــــــــــ: من بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٤م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢٤- عصفور، جابر : الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م.

٢٥- فندريس : علم اللغة، ترجمة : عبدالحميد الدواخلي ومحـــمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د.ط)، ١٩٥٠م.

٢٦- القطان، منّاع : مباحث علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١ م.

٢٧- لاشين، عبدالفتاح : التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبدالقاهر الجرجاني، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٠م.

٢٨- المبارك، مازن : الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨١م.

٢٩- مطلوب، أحمد : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٣م.

٣٠- مندور، محمد : النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، مترجم عند الأستاذين لانسون ومابيه، نـــهضة مصر، (د.ط)، ١٩٧٠م.

٣١- الموسوي، محمد باقر : روضات الجنان في أحوال العلماء والسادات، تحقيق : أسد الله إســـماعيليان، مطبعة مهداستوار، طهران، (د.ط)، ١٩٧٠م.

٣٢- هلال،محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، القاهرة، مصر، (د.ط)، ٢٠٠١م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثالثاً:الدوريات:

١- فلفهارت، هاينركس : آراء حول الاستعارة ومعنى المصطلح، استعارة في الكتابات المبكرة في النقد العربي، ترجمة : سعاد المانع، مجلة فصول، مج ١٠، ع٣، ١٩٩٢م.

٢- الفيل، توفيق : البلاغة العربية بين القصور والتقصير (دراسة في النشأة والتطور)، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، مج١٧، ع٨، ١٩٩١م.

٣- الناقوري، إدريس : المصطلح النقدي في نقد الشعر لقدامة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج٢٤، ع٤، ١٩٨٦م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفهارس

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس آيات القرآن الكريم

الآيـــــــــــــــــــــــــــــــــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيـم﴾	الفاتحة	١-٢	٢٣
﴿إنّ الذين كفروا سواء عليهـم أأنذرتهـم أم لـم تنذرهـم لا يؤمنون، ختـم الله على قلوبهـم وعلى سمعهـم وعلى أبصارهـم غشاوة ولهـم عذاب عظيـم﴾	البقرة	٦-٧	٦٩
﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهـم إنا معكـم إنّما نحن مستهزءون، الله يستهزئ بهـم ويمدهـم في طغيانهـم يعمهون﴾	البقرة	١٤-١٥	٦٩
﴿وإن كنتـم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكـم من دون الله إن كنتـم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافـرين﴾	البقرة	٢٣-٢٤	٨٠
﴿وأشربوا في قلوبهـم العجل﴾	البقرة	٩٣	٨٨
﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هـم بمؤمنين﴾	البقرة	٨	١٢٦
﴿ولو أنهـم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾	البقرة	١٠٣	١٢٧
﴿أولئك على هدى من ربّهـم وأولئك هـم المفلحون﴾	البقرة	٥	١٣٤
﴿صـم بكـم عمي فهـم لا يرجعون﴾	البقرة	١٨	١٣٧
﴿ختـم الله على قلوبهـم﴾	البقرة	٧	١٣٨
﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات﴾	البقرة	١٩	١٣٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآيـــــــــــــــــــــــــــــــة
٦٩	٥٤	آل عمران	﴿ومكروا ومكر الله﴾
٦٥	٦١	المائدة	﴿وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾
١٢٧	٣٧	المائدة	﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾
٦٤	١٤	الأنعام	﴿قل أغير الله أتخذ وليًا﴾
١٣١	٢	الأنعام	﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده﴾
١٣٥	٢٧	الأنعام	﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد﴾
١٣٥	٩٣	الأنعام	﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾
١٣٦	١٤٣	الأعراف	﴿رب أرني أنظر إليك﴾
١٣٤	١٧٩	الأعراف	﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾
٨٠	٣٨	يونس	﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾
١٣٣	٤٥	يونس	﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾
٤٣	٤٤	هود	﴿وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾
٨٠ ،١	١٣	هود	﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾
٨٨	٨٠	يوسف	﴿خلصوا نجيًا﴾

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الآيـــــــــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف﴾	يوسف	٨٥	١٣٦
﴿فاصدع بما تؤمر﴾	الحجر	٩٤	٨٨
﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾	الإسراء	٨٨	١، ٨٠
﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفـــــاق﴾	الإسراء	١٠٠	١٣١
﴿ويوم نسيّر الجبال، وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾	الكهف	٤٧	١٢٨
﴿واشتعل الرأس شيبـًا﴾	مريم	٤	٤٥-١١٢
﴿قد جعل ربك تحتك سريًا﴾	مريم	٢٤	٨٩
﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾	الأنبياء	٦٢	٦٢
﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾	الأنبياء	٧٩	١٣٢
﴿فإنها لا تعمى الأبصار﴾	الحج	٤٦	١٣٨
﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾	النور	٢-٣	١٣٢
﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾	الفرقان	٣	٦٥
﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا﴾	الفرقان	٢١	١٣٣
﴿قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾	الشعراء	١٥	١٣٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الآيـــــــــــــــــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾	القصص	٢٣-٢٤	٧٦
﴿قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا . تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾	القصص	٦٣	١٣٣
﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده شيئاً ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾	لقمان	٣٣	١٢٧
﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا﴾	الأحزاب	١٧	١٢٣
﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾	فاطر	٩	١٢٩
﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون﴾	يس	٣٣	١٢٥
﴿أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون﴾	الصافات	١٥٣ ١٥٤	٦٣
﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾	الصافات	٨٦	١٣٠
﴿والصافات صفًا، فالزاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا﴾	الصافات	١-٣	١٢٤
﴿عجّل لنا قطّنا﴾	ص	١٦	٨٨
﴿يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم﴾	الجاثية	٨	١٣٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الآيـــــــــــــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾	ق	٣٧	٥٣
﴿أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾	الطور	٣٣ ٣٤	٧٩
﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾	القمر	١٣	٨٨-١٢٦
﴿وفجرنا الأرض عيونًا﴾	القمر	١٢	١١٣
﴿لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾	الواقعة	٧٠	١٣٤
﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾	الرحمن	١-٤	١
﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾	الحشر	٢	١٣١
﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم﴾	الحشر	٨-٩	١٢٥
﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون﴾	الممتحنة	٢	١٢٨
﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾	الجمعة	٥	١٠٤
﴿فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر﴾	المدثر	٢٤- ٢٥	١٣٣
﴿ ما ودعك ربك وما قلى﴾	الضحى	٣	١٣٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس الأبيات الشعرية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البيت		الشاعر	الصفحة
قافية الحاء			
وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ في الوغَى	مُتَقَلِّدًا سَيْفًا ورُمْحَا	عمرو بن معد يكرب	١٢٤
أَخَذْنا بِأَطْرَافِ الحديثِ بيننا	وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ	كُثَيِّر عزّة	١١٥
قافية الدال			
وعَلِمْتُ أنّي يَومَ ذا	ك منازِلٌ كَعْبًا ونهدًا	عمرو معد	٧٢
قَومٌ إذا لَبِسُوا الحديـ	ـد تنمّروا حلقًا وقِدًّا	يكرب الزبيدي	٧٢
فَأَسْبَلَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ، وسَقَتْ	ورْدًا، وعَضَّت على العُنّاب بالبَرَد	الوأواء الدمشقي	١٠٢
إن تَلْقَنِي لا تَرى غَيْري بِنَاظِرةٍ	تَنْسَ السِّلاحَ وتعرفْ جبْهَةَ الأَسَدِ	أرطاة بن سُهَيّة	١١٦
قافية الراء			
يا مَنْ يُسافِرُ في البلاد تعبًا	إنّي إلى البَلَدِ الحَرَامِ مُسَافِرُ	الزمخشري	٣٢
سأُقِيمُ ثَمَّ ثُمّ تُدْفَنُ أَعْظُمِي	ولَسَوفَ يبْعثُني هُنَاكَ الحاشِرُ	الزمخشري	٣٢
أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامةٌ	فَتْخَاءَ تَنْفِرُ مِن صَفِيرَ الصَّافِرِ	عمران بن حطان	
قافية العين			
تلفّتُّ نَحْوَ البَيْتِ حَتى وَجَدْتُني	وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَاءِ ليتًا وأخْدَعا	الصمة بن عبدالله القشيري	٥٤
وإنّي وإن بلّغْتَنِي شَرَفَ الغِنَى	وأعْتَقْتَ من رِقِّ المطَامعِ أَخْدَعي	البحتري	٥٤
شَجْوُ حُسَّادِهِ وغَيْظُ عِدَاهُ	أَنْ يرى مُبْصِرٌ ويَسْمَعَ واعٍ	البحتري	٧٤

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

		الشاعر	الصفحة
قافية اللام			
لا تَحْـسَبُوا أنَّ فِـي سِرْبَالَهُ رَجُلاً	ففـيه غَـيْثٌ ولَيْثٌ مُسْبِلٌ مُشْبِلُ	الزمخشري	١٣٧
يُـرَادُ مِـنَ القَلْـبِ نِـسْيَانُكم	وتَـأبى الطِـبَاعُ علـى الـنَّاقِلِ	المتنبي	٥٠
قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ	بِسَقْطِ اللوِّى بين الدَخول فحومَلِ	امرؤ القيس	٤٤
أيَقْـتُلُني والمَـشْرَفيُّ مُـضاجِعي	ومَـسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنـيابِ أغْوالِ	امرؤ القيس	٦٣
زَعَـمَ العـواذِلُ أنَّـني في غَمْـرَةٍ	صـدَقوا، ولكنْ غمْرتي لا تَنْجَلي	امرؤ القيس	٧٠
قافية الميم			
ومِـنْ مَـالىء عَيْنَيْهِ مِنْ شيءٍ غَيْرِهُ	إذا رَاحَ نَحْوَ الجَمْرةِ البيضِ كالدُمَى	عمر بن أبي ربيعة المخزومي	٤١
أأتْـرُكُ أنْ قلّـت دراهـمُ خالـدٍ	زيارَتَـهُ؟ إنّـي إذًا لَلَئِـيمُ	عمادة بن عقيل اليربوعي	٦٣
وغَـداةُ رِيـحٍ قَـد وَزَعْتُ وَقِرَّةٍ	إذْ أصْبَحَتْ بِيَدِ الشمالِ زِمامُها	لبيد بن ربيعة	٩٨ ١٠١
خَميسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ والغَرْبِ زَحْفُهُ	وفي أُذُنِ الجَـوْزَاءِ مِـنْه زَمـازِمُ	المتنبي	١٠١
قولي : نَعمْ، نَعمْ إن قُلْتِ واجبـةٌ	قالتْ : عسى، وعسى جِسرٌ إلى نَعم	ربيعة الرَّقي	١٠٣
نفـسُ عِـصامٍ سَـوّدت عِـصَاماً	وعلّمـته الكـرَّ والإقْـداما	النابغة الذبياني	١١٩
ويَـوْمًا تُوافِيْـنا بِـوَجْهٍ مقـسَّمٍ	كـأنْ ظَبْيَةٌ تعطُو إلى نَاضِرِ السَلَمِ	ربيعة الرَّقي	١٣٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قافية النون

		الشاعر	الصفحة
لو الفلَكَ الدَّوّارَ أبْغَضْتَ سَعْيَهُ	لعوّقه شيءٌ عَن الدّوَران	المتنبي	٤١
ولَقَدْ أمرُّ على اللّئيمِ يَسُبُّني	فَمضَيْتُ ثمّةَ قُلْتُ لا يعنيني	المتنبي	١٢٥
بأنّي قَد لَقيتُ الغولَ تهوى	بسَهْبٍ كالصَحيفَةِ صَحْصَحَان	المتنبي	١٢٩
فأَضَرّ بِها بِلا دَهَشٍ فَخَرّتْ	صَرِيْعًا لليَدَيْنِ وللجِرَان	المتنبي	١٢٩

قافية الهاء

		الشاعر	الصفحة
أيُّ وَقْتٍ هذا الذي نحْنُ فيه	قد دجا بالقياسِ والتَشبيهِ	الجرجاني	٦
كُلّما سارتِ العقولُ كي تَقْ	طعَ تيْهًا توغّلت في تيه	الجرجاني	٦
هذا زمانٌ ليسَ فيهِ	سوى النّذالة والجهالة	الجرجاني	٦
لم يرقَ فيه صاعدٌ	إلاّ وسُلَّمُهُ النذالة		٦
علّفْتَها تِبْنًا وماءً باردًا	حتى غَدَتْ همّالة عيناها	—	١٢٥
وقَد عَلِمْنا بأنّ النَّظْمَ ليسَ سوى	حُكْمٍ مِنَ النَّحْوِ نمْضي في تَوَخّيه	الجرجاني	٢٠
لو نَقّب الأرضَ باغٍ غيرُ ذاكَ لهُ	معنىً وصَعّد يعْلُو في تَرَقّيهِ	الجرجاني	٢٠
ما عَادَ إلاّ بخُسْرٍ في تطَلّبهِ	ولا رأى غَيْرَ عيٍّ في تَبغّيه	الجرجاني	٢٠
ونَحنُ مَا إنْ بَثّنا الفِكْرَ ننظُرُ في	أحكامِهِ ونُروّي في معانِيه	الجرجاني	٢٠
إنّي أقول مقالاً لستُ أُخفيهِ	وَلَسْتُ أَرْهَبُ خَصْمًا إنْ بدا فيه	الجرجاني	٩٠
مَا مِنْ سبيل إلى إثْبات مُعْجزَة	في النَّظْمَ إلاّ بما أصْبَحْتُ أُبْديه	الجرجاني	٩٠
فما لِنظْمِ كَلامٍ أنْتَ ناظمُهُ	معنىً سِوى حُكْمِ إعْراب تُزْجيه	الجرجاني	٩٠

قافية الياء

		الشاعر	الصفحة
إذَا مَا تَقاضَى المرْءُ يومَهُ ولَيْلَهُ	تقاضَاهُ شَيءٌ لا يَملُّ التَقاضِيا	أبو حيّة الهيثم بن الربيع	٤١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Miraculous nature of Holy Koran between jorjani and Zamakhshari in their books, Proofs of inimitability (Dalael Al E'ejaz) and Al-Kashaf

By: Seba Yousef Al-Najar

Supervised by:
prof. Sameer Shareef Estaitieh

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

This study aims at examining the prominent opinions of Abdul Qahir Al-Jorjani and Zamakhshari in linguistic inimitability in Holy Koran, According to most researchers Jorjani is considered the most distinguished old Arabic critic and reviewer investigating the issue of linguistic inimitability, as he was able to build an integrated theory that relies on strict accurate scientific basis of investigation in this inimitability.

This study tries to investigate the theory of versification introduced by jorjani in his book, Proofs of inimitability, clarifying it and its bases, goals, and its obvious effect on later rhetoric and grammatical studies. While Jorjani had tried to build a theory that aims at opening the door for more detailed studies, Zamakhshari was the most subsequent scientist interested in and relying on Jorjani's opinions, that was apparent in his interpretational book Al-Kashaf, in which he adopted and widely-implemented the jorjani opinions.

In order to meet that aim, this study came in five chapters following the introduction, as follows:

First chapter: I studied jorjani life and his ideology, distinguished Shikhs and students, scientific succession, then, I investigated the theory of versification of jorjani and the image through which it reached him, and how he made use of formers opinions to revise the theory from his vision. This chapter also studied the life of Zamakhshari and his book, Al-Kashaf.

The second chapter: I studied the most distinct opinions of jorjani in relationship between versification and structure. The chapter included an attempt to reveal the relationship between the word and context, and the relationship between the sentence and the context advancing and delaying, junction and disjunction, and deletion.

Then, the second chapter was proceeded by a third one entitled "versification and semantics", in which I studied the Jorjani's linking of versification to inimitability and semantics to inimitability.

In the forth chapter, then, I explained the relationship between versification and eloquence, and the effect of Jorjani opinions in Arabic eloquence, as he was able to take it off the conventional setting. The chapter also included examples of semantics of inimitability about the gracefulness of words in different structures and contexts or in the whole script.

In the fifth chapter, I explained how did Zamakhshari deal with the theory of versification, and how did he make use of them in his book, Al-Kashaf.

The study ended by an epilogue, followed by a list of references and sources, and appendices of sura (Chapters of Holy Koran) and verses.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University